

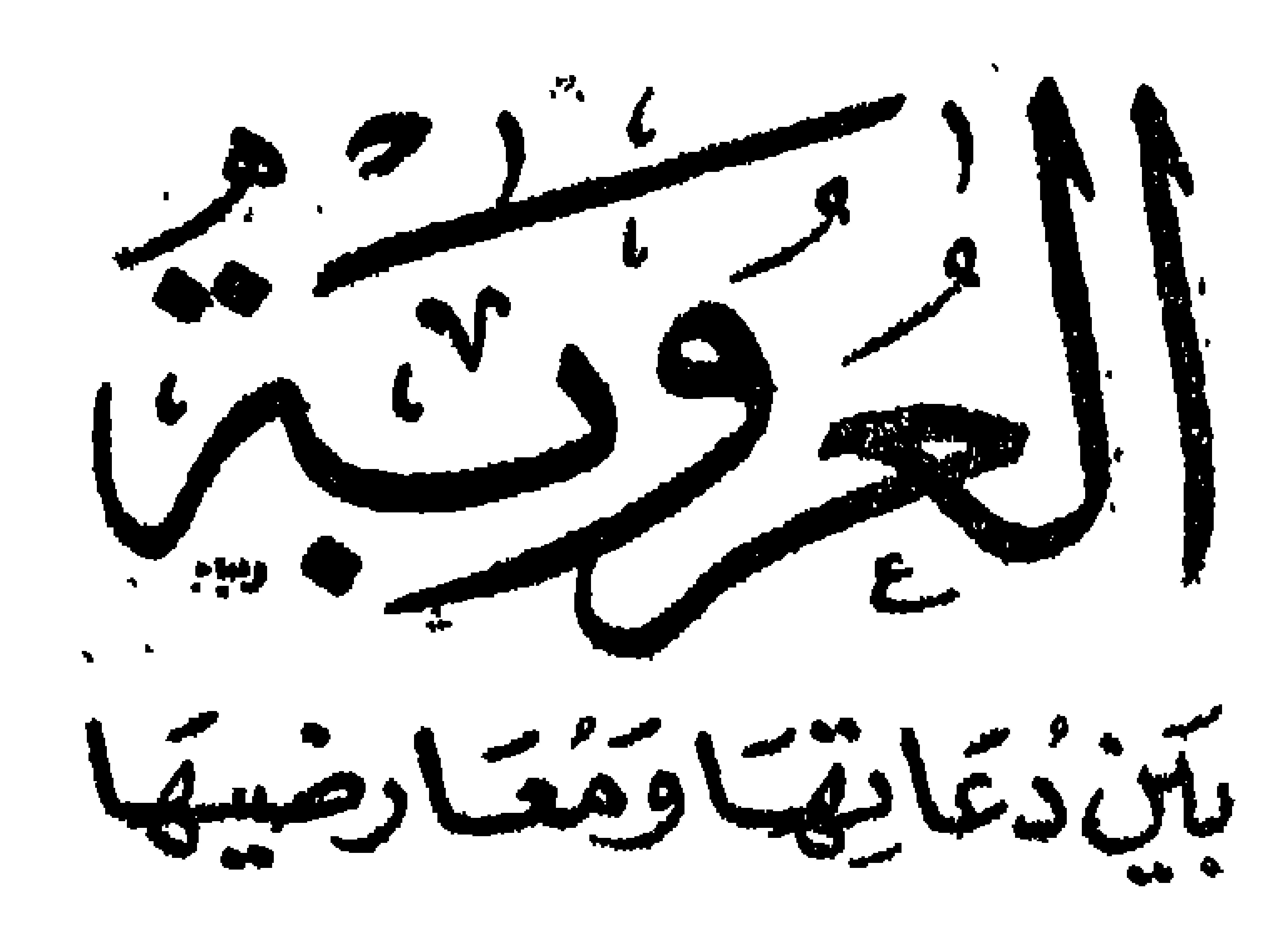
ساطع الحصري

العروبة

بين دعاتها ومعارضيها

- الأمة العربية والدول العربية
- ردود على الكتائب اللبنانية
- نقد آراء انطون سعادة
- العروبة في نظر الدول والاحزاب

ساطع الحصري



الطبعة الرابعة

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الرابعة
كانون الثاني (يناير) ١٩٦١
بيروت

من مؤلفات الحصري

(أ) الكتب التي تتناول موضوع الوطنية والقومية مباشرة :

آراء وأحاديث في الوطنية والقومية (الطبعة الثالثة)	بيروت ١٩٥٧
آراء وأحاديث في القومية العربية (الطبعة الثانية)	بيروت ١٩٥٩
العروبة بين دعاتها ومعارضيها (الطبعة الثالثة)	بيروت ١٩٥٧
محاضرات في نشوء الفكرة القومية (الطبعة الرابعة)	بيروت ١٩٥٩
العروبة أولا (الطبعة الثالثة)	بيروت ١٩٥٨
دفاع عن العروبة (الطبعة الثانية)	بيروت ١٩٥٧
ما هي القومية	بيروت ١٩٥٩

(ب) الكتب التي تتناول بعض المواضيع المتصلة بقضايا القومية :

يوم ميسلون	بيروت ١٩٤٧
صفحات من الماضي القريب	بيروت ١٩٤٨
آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع (الطبعة الثانية)	بيروت ١٩٦٠
آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة	القاهرة ١٩٥١
دراسات من مقدمة ابن خلدون (الطبعة الثانية — موسعة)	١٩٥١
آراء وأحاديث في اللغة والأدب	بيروت ١٩٥٨
البلاد العربية والدولة العثمانية	بيروت ١٩٦٠

حولية الثقافة العربية :

السنة الأولى — حتى ١٩٤٩ — ١٩٥٠	القاهرة ١٩٥٠
السنة الثانية — عن ١٩٥٠ — ١٩٥١	القاهرة ١٩٥٢
السنة الثالثة — عن ١٩٥١ — ١٩٥٢	القاهرة ١٩٥٣
السنة الرابعة — عن ١٩٥٢ — ١٩٥٣	القاهرة ١٩٥٤
السنة الخامسة — عن ١٩٥٣ — ١٩٥٧	القاهرة ١٩٥٧
حول الوحدة الثقافية العربية	بيروت ١٩٥٩
حول تدريس اللغة العربية (الطبعة الثامنة)	بيروت ١٩٥٩

الامة العربية والدول العربية

بين الخيالية والواقعية

•

ان اهم ما لفت نظري في كتابات المعارضين لفكرة الاتحاد، هو استرسالهم في نعت الفكرة بالخيالية ، واسرافهم في الدعوة الى الواقعية .

انهم يقولون على الدوام ، ضمناً او صراحة : «هذا وهم . هذا خيال محال . يجب ان نقلع عن السير وراء الخياليات . يجب ان نكون واقعيين ... »

وانا اود ، قبل كل شيء ، ان اسأل هـؤلاء المعارضين : ماذا يفهمون من الخيالية ؟ وماذا يقصدون من الواقعية ؟

لا شك في ان تمييز « الخيال » عن « الواقع » امر لا يحتاج الى بحث ونقاش ، ولكن التمييز بين ما يسمى « الخيالية » وبين ما يسمى « الواقعية » ، يحتاج الى بحث جدي وتأمـل عميق ؛ ذلك لأنه اذا كان هناك خيالات محضة ، غير قابلة للتحقيق ، فان هناك خيالات خلاقة تسير قدماً نحو التحقيق .

ويجب ان لا ننسى ان كثيراً من « واقعيات » اليوم ، كانت من « خياليات » الأمس . ويجب ان لا نشك في ان كثيراً من

« خياليات اليوم » ، قد تصبح من « الواقعيات » ، في الغد القريب أو البعيد ..

وأنا اقول بدون تردد : انه ما من اصلاح تم ، وتقدم حصل ، وما من نهضة قامت ، ورسالة انتشرت .. إلا وقد بدأت على شكل « مشروع » تخيلته بعض الاذهان ، او « امل » جاش في بعض الصدور ، أو مثل اعلى صبت إلى تحقيقه بعض النفوس :

ولو كان الناس كلهم واقعيين ، – بالمعنى الذي يقصده دعاة الواقعية في امر اتحاد البلاد العربية – ما كان تيسر للبشرية أي تقدم كان ، في اية ساحة من سوح الحياة السياسية والاجتماعية .

كل حركة تقدمية ، إنما تبدأ بالخروج على الأمر الواقع . وكل نهضة قومية ، إنما تنشأ من العصيان على الوضع الراهن :

ولهذا السبب ، أنا احذر المفكرين والكتاب من الاسراف في الحكم على الآراء بالخيالية ، ومن الاسترسال في الدعوة إلى الواقعية ، فان صفحات التاريخ مليئة بحوادث ووقائع تبرهن على ان اكبر المفكرين واشهر الساسة لم يسلموا من الوقوع في اخطاء فاحشة ، في امثال هذه الأحكام :

إن كثيرين من رجال القلم والسياسة ، كانوا زعموا ان « فكرة الوحدة الالمانية » من الأوهام التي لا يمكن ان ترى الوجود إلا في مخيلة بعض الساسة ، واحلام بعض الشعراء .

إن زعماء حركة « السين فاين » الايرلندية ، كانوا يتهمون – بوجه عام – بالخيالية ، وبالبعد عن الواقعية ، في النضال الذي شنوه على حكم الامبراطورية البريطانية الجبارة .

وعندما قام مصطفى كمال ، لتخليص تركيا من كوارث التمزيق والاحتلال ، عارضه السلطان وحيد الدين — ومن التف حوله من الساسة المرجفين — باسم « الواقعيـــة » ، زاعمين أن الخروج على مقررات الدول المعظمة الظافرة ، إنما هو ضرب من الانتحار .

وانا لا أزال اذكر الآن ، الحديث الذي سمعته — قبل نحـو ثماني سنوات—في احد صالونات اوتيل سان جورج في بيروت ، بين اثنين من رجال السياسة السورية ، إذ قال أحدهم لـــلآخر — بتهكم شديد — ألا تزالون تمشون وراء الخيـــال ، فتشتغلون للاستقلال والمستقلال ؟

اني استطيع ان اطيل هذه السلسلةمن الوقائع البليغة ، كثيراً وكثيراً جداً . ولكني اعتقد ان هذه الامثلة وحدها تكفي للبرهنة على ان الذين كانوا يسيرون وراء ما اعتبره البعض ضربــاً من « الوهم والخيال » إنما كانوا اكثر فهماً لحقائق الامـور ، من معارضيهم الواقعين .

ولا اتردد في القول بأن ثمة خيالاً هو أشد حيوية من الواقع؛ لأن « الواقع الحالي » كثيراً ما يمثل « الماضي البالي » ، في حين ان « الخيال الحالي » قد يحمل في احشائه «الاستقبال الحقيقي» .

وانا أعتقد ان فكرة العروبة والاتحاد العربي إنمـا هي من أحسن الأمثلة على هذا النوع من « الخيال » .

— ١٩٥١ —

قصص ميلاد الدول العربية

●

لقد لاحظت ان بعض الجرائد حملت حملات شعواء على رأي القائلين بان قيام دول عديدة في مختلف الاقطار العربية ، بعد الحرب العالمية الاولى ، انما نشأ عن مطامع الدول المستعمرة واتفاقاتها .

وقد زعمت الجرائد المذكورة :

اولاً — ان سبب قيام هذه الدول هو الاختلاف الموجود بين طبائع اهاليها .

وثانياً — ان الدول المذكورة ليست الا امتداداً لكيانات قائمة من قديم الزمان .

فرأيت ان اناقش كل واحد من هذين الزعمين على حدة :

هل يوجد حقيقة بين الاقطار العربية المختلفة ، اختلاف جوهري في الطبائع ، يجعل من الضروري ان تقوم في كل واحد منها دولة مستقلة عن غيرها ؟

هل يوجد — مثلاً — بين القطر السوري والقطر العراقي ، من الاختلاف ما يحتم على كل واحد منهما ، ان يكون دولة خاصة به ؟

اني لا أتردد في الاجابة على هذا السؤال بالنفي البات :

لقد قدر لي ان اعيش وان اعمل في كل واحد من هذين القطرين حقبة طويلة من الزمن ، وان اطلع على احوالها الطبيعية والبشرية اطلاعاً واسعاً . وقد تجولت – خلال مدة تقرب من ثلث القرن – في انحاء كل منهما جميعاً ، من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ، من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ، من اكبر المدن الى اصغر القرى ، من اخصب الاراضي الى اقفر البوادي. وقد تنقلت مراراً في مختلف انحاء القطرين المذكورين ، ليس تنقل السائح العابر ، بل تنقل الباحث العامل ؛ فاستطيع ان اؤكد – استناداً الى ما لاحظته خلال هذه المدة الطويلة – انني لم اجد بين احوال القطرين اختلافاً يفوق الاختلافات التي تشاهد عادة بين مختلف المناطق ، في كثير من الدول الاوروبية نفسها .

لا شك في ان بغداد تختلف عن دمشق في كثير من الامور ، ولكن هل يوجد في العالم مدينة لا تختلف عن غيرها في غير قليل من الامور ؟ ثم ، اذا كان ثمة اختلاف بين بغداد وبين دمشق ، أفلا يوجد اختلاف مماثل لذلك ، بل واشد من ذلك ، بين بغداد وبين المنتفك في العراق من ناحية ، وبين دمشق وبين دير الزور في سوريا من ناحية اخرى ؟

ومما لا شك فيه ابداً ، ان الموصل مثلاً كانت – قبل ثلاثين عاماً – اكثر اتصالاً بحلب منها ببغداد ، واشد شبهاً بها .

واني لا ازال اذكر الانطباع الذي حصل في نفسي عند زيارتي الاولى الى الديوانية في العراق ، قبل نحو ثلاثين عاماً : لقد توهمت

اني لم اغادر حوران !

كما اني لازال اذكر الانطباع الذي حصل في نفسي ، عندما زرت دير الزور ، قبل سبعة أعوام : لقد ظننت انني عدت إلى العراق !

ولذلك كله ، أقول جازماً : بأن الفروق التي تذكر بين القطرين العراقي والسوري ، ليست من الفروق الجوهرية ، وهي لا تفوق كثيراً الفروق التي تشاهد بين مختلف الإيالات الفرنسية مثلاً .

ولا أغالي إذا قلت : انها تقل كثيراً عن الفروق القائمة بين ايالتي كالابريا ، ولومبارديا في ايطاليا .

هذا ، ويجدر بي أن اشير في هذا المقام ، إلى الحقيقة التالية أيضاً :

إن كثيراً من الفروق التي تشاهد الآن بين أحوال سوريا وبين احوال العراق ، إنما نتجت عن اختلاف نظم الحكم والادارة والاقتصاد والثقافة ، التي قامت في كل منها ، منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى . وهي فروق سطحية وعرضية ، تتضاءل وتتلاشى بسرعة امام التماثل الاساسي الذي لا يزال قائماً بينهما .

فلا يمكن ، والحالة هذه ، تعليل وتفسير نشوء هذه الدول العربية المختلفة ، بغير الرجوع إلى مطامع الدول الاوروبية . واتفاقاتها السياسية ، ومحاولاتها الاستعمارية .

★

إن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح اكبر – بل تصل إلى حد البداهة – في أمر نشوء المملكة الاردنية .

لماذا وكيف تكونت المملكة الاردنية، في هذه الرقعة الصغيرة من البلاد العربية ؟

إنها كانت « متصرفية الكرك » في عهد السلطنة العثمانية ، ثم صارت «متصرفية السلط» في عهد الدولة العربية الاولى في سوريا.

واني، بوصفي من المساهمين في تأسيس الدولة المشار اليها ، ومن المشتركين في تقرير كثير من الامور المتعلقة بالمتصرفية المذكورة نفسها ، اؤكد كل التأكيد انه ما كان يخطر ببال أحد منا ، ولا ببال أحد من ساسة الدنيا كلها في ذلك التاريخ، انهذه المتصرفية ستصبح امارة ، ثم مملكة ، في يوم من الايام .

واني اتحدى جميع معارضي فكرة الاتحاد ، ان يذكروا لي مثالاً واحداً ، يدل على ان استقلال هذه الرقعة من الارض بكيان سياسي خاص، كان موضوعاً لطلب، او مشروع ، او اقتراح، او تنبؤ ... قبل سنة ۱۹۲۰ .

إن تاريخ المسألة الشرقية بوجه عام، وتاريخ مؤتمر فرساي بوجه خاص ، حافل بمشاريع كثيرة ، تحوم حول إحياء بعض الدول القديمة ، أو احداث بعض الدول الجديدة .

لقد جمع احد ساسة الغرب تاريخ هذه المشاريع في كتاب قيم ، عنونه بعنوان « مائة مشروع ، لتقسيم تركيا » .

وقد تلقى مؤتمر الصلح الذي انعقد في فرساي ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى، عرائض ومطاليب كثيرة من مختلف الوفود الشعبية ، واقتراحات عديدة من مختلف الهيئات السياسية، ووجد نفسه أمام كمية هائلة من المطاليب والمشاريع الرامية إلى تغيير

الخرائط السياسية ، من احيـــاء « دولة بونتوس » الى احداث « دولة آشور » .

ان كل من يستعرض صفحات تاريخ مؤتمر الصلح ، الحافل بشتى المطاليب والمشاريع ، لا يجد فيها اي اثر لطلب او اقتراح يتصل — من قريب او بعيد — باحداث دولة وراء الاردن .

كيف ، ولماذا اذن ، تكونت هذه الدولة في هذه البقعة من البلاد العربية ؟

لا يمكن لأي باحث كان — بعد ملاحظة الحقائق التي سردتها آنفاً — ان لا يسلم بان السبب الاصلي في ذلك ، يعود — على وجه الانحصار الى السياسة التي اتخذتها بريطانيا ، لنفسها ، بعد تعديل اتفاقاتها مع فرنسا .

ومعلوم لدى الجميع ، ان المفاوضات التي جرت بين فرنسا وبين انكلترة لتعديل اتفاق سايكس بيكو انتهت الى :

موافقة فرنسا على عدم المطالبة بالموصـــل من ناحية ، وعلى ادخال فلسطين تحت الانتداب البريطاني من ناحية اخرى .

وموافقة انكلترة على منح فرنسا حصة من بترول الموصل من ناحية ، وعدم مطالبتها بمراعاة استقلال سوريا الداخلية من ناحية اخرى .

وكان من جملة الامور التي تم الاتفاق عليها بـــين الطرفين — خلال هذه المفاوضات والمساومات — ان يكون الحد الفاصل بين منطقتي نفوذهما ، خطاً يمر من جنوب درعا .

ولهذه الاسباب كلها ، عندما استولت فرنسا على سوريا ،

توقفت في درعا ، ولم تتغلغل في جنوبها ، تاركة حق التصرف ، في شؤون ذلك القسم من الدولة السوريـــة المنقرضة ، لبريطانيا العظمى .

عندئذ ، وجدت انكلترة نفسها امام حلين لا ثالث لهما في تلك الظروف ، لمعالجة الموقف الجديد : إما إلحاق تلك المنطقة بفلسطين ، او جعلها إمارة منفصلة عن سوريا وعن فلسطين في وقت واحد.

ولكن انكلترة كانت مرتبطة في فلسطين بوعد بلفور المشهور نحو الصهيونية . فلم تشأ ان توسع حدود الوعد المذكور ، ورجحت لذلك ، ان تجعل اراضي المتصرفية المذكورة وحدة سياسية ، منفصلة عن فلسطين ، ولو كانت تابعة للمندوب السامي المقيم فيها.

انها رأت في الوقت نفسه ، ان المنطقة المذكورة صالحة لأن تكون قاعدة استراتيجية ، تستطيع ان ترسخ حكمها فيها دون ان تخشى مشاكل دولية ، او مطالب شعبية .

هذا هو السبب الاصلي ، الذي كوّن الامـــارة الاردنيـــة فالمملكة الاردنية .

وهنا قد يسألني سائل : ولماذا لم تفكر انكلترة عندئذ في حل ثالث وهو ربط الاردن بالعراق ؟

ولكني اعتقد ان جواب هذا السؤال يرتسم من تلقاء نفسه ، عند تذكر الاحوال السائدة في ذلك التاريخ :

اولاً : ان طريق الصحراء ما كان معلوماً ومفتوحاً بعد : فان الاتصال بين الاردن وبين العراق ، ما كان يمكن ان يتم في ذلك الزمان ، الا على ظهور الجمال ، عبر بادية الشام .

ثانياً : ان العراق كان عندئذ في بـــدء ثورته على الحـــكم البريطاني : فما كان من مصلحة انكلترا ان تفكـــر في ضم بلاد تستطيع هي ان تحكم شعبها بكل سهولة ، الى بلاد يثور شعبها عليها تلك الثورة العنيفة .

هذه هي الاسباب التي ادت الى تكوين الدولة الاردنيـــة : اسباب لا تمت بصلة ما الى مطاليب الشعب او خصائصه ، بل تحوم حول الاتفاقات الدولية ـ الفرنكو البريطانية ـ من ناحية ، وحول مصالح بريطانيا واتجاهات سياستها العامة من ناحية اخرى .

اسطورة الكيانات الواقعية

●

لقد سردت احدى الجرائد نظرية جديدة لتعليل تعدد الدول العربية هي ما نستطيع ان نسميه نظرية «الكيانات الواقعية» حسب تعبير الجريدة نفسها .

أولاً ، سألت الجريدة « لماذا كانت بلاد العرب منقسمة إلى ولايات وسناجق وامارات ؟ »

وبعد ذلك ، كتبت في مقالتين مختلفتين — العبارات التالية :

«كان طبيعياً أن تتدرج هذه الكيانات الواقعية في العالم العربي التي كانت دائماً سناجق وامارات وولايات (اي وحدات مستقلة) وتتجلى في دول مستقلة ، تمكيناً لها من ان تعمل لمصالحها ..

« ... الجوهر الذي تتميز به هذه الكيانات — الكيانات التي كانت امس ولايات وسناجق وإمارات — لأنها وحدات متمايزة متنوعة ، فصارت اليوم دولاً مستقلة . »

يظهر من هذه العبارات — التي نقلتها بحروفها — ان الجريدة المذكورة خلطت خلطاً غريباً بين الكيان المطلق وبين الكيان السياسي ، ولم تميز بين الوحدات الادارية والوحدات السياسية .

لا ريب في ان لكل شيء كياناً : لكل قرية ، لكـل واد ، لكل مدينة ، لكل مديرية ، لكل قائمقامية ، لكل شيء كيان ؛ ولكن بين هذا النوع من الكيان وبين ما يسمى بالكيان السياسي بوناً شاسعاً جداً .

إذا كانت الولايات والسناجق كيانات واقعية ... واذا كان من الطبيعي ان تتدرج هذه الكيانات الواقعية إلى دول مستقلة — كما تقول الجريدة — يجدر بنا ان نسألها : لمَ لمْ تتدرج جميعها إلى الاستقلال ؟ ولماذا اندمج بعضها مع بعض في كيان سياسي واحد ؟

لماذا استقلت متصرفية الكرك — مثلا — ولم تستقل متصرفيـة دير الزور ، مع ان الأولى كانت تابعة لولاية الشام ، في حين ان الثانية كانت مستقلة عن الولايات ؟

ثم ، لماذا لم تستقل ولاية الموصل أو ولاية حلب ؟ وفي الأخير لماذا لم تتحد ولاية الموصل مع ولاية حلب بل اتحدت مع ولاية بغداد ؟

ولماذا لم تتكوّن متصرفية اللاذقية دولة مستقلة ، أو لم تبق مرتبطة ببيروت ، كما كانت من قبل ؟

ولماذا تكونت محل ست ولايات ونحو عشرين سنجقاً اربع دول فقط ، مع ان جميع تلك الولايات والسناجق كـــانت من جملة « الكيانات الواقعية » على رأي الجريدة ؟

ولماذا توزعت سناجق ولاية بيروت بين ثلاث دول — أي ثلاث وحدات سياسية ؟

ولماذا اتحد سنجقان من سناجق ولاية سورية القديمة ، مـــع ثلاثة سناجق من سناجق ولاية حلب وسنجق من سناجق ولاية

بيروت ، مع سنجق دير الزور ، لتكوين وحدة سياسية ؟

ألم يكن كل ذلك، دليلاً قاطعاً على بطلان نظرية «الكيانات الواقعية » التي تحاول تعليل تعدد الدول العربية بتدرج السناجق والولايات نحو تكوين دول مستقلة ؟

الشواهد التاريخية

•

يحاول خصوم فكرة الوحدة والاتحاد ان يدعموا آراءهم بحجج تاريخية ، ويزعمون ان انقسام البلاد العربية الى دول عديدة ، عند انفصالها عن السلطنة العثمانية ، كان من الامور الطبيعية بدليل ان امبراطوريات اخرى ايضاً ولدت دولاً عديدة.

وقد جاء في احدى مقالات الجريدة البيروتية التي اخذت على عاتقها مهمة « محاربة فكرة الاتحاد » العبارات التالية :

« كم دولة انشقت من الامبراطورية النمساوية مثلاً ؟ نعرف مثل المانيا الذي يحبون دائماً الاستشهاد به والتحجج . ولكن المانيا شعب موحد عنصراً ، وتاريخاً ، وارادة ، ومصلحة » .

يظهر من ذلك ان الجريدة تود ان تستشهد بما حدث في النمسا وتنكر على دعاة الاتحاد الاستشهاد بما حدث في المانيا ، ولسان حالها يقول : « ان النمسا هي التي تعطينا المثال الذي ينطبق على احوال البلاد العربية ، لا المانيا ! » .

فيجدر بنا ان ندرس كل واحد من هذين المثالين اللذين تذكرهما الجريدة ، دراسة مستندة الى الحقائق التاريخية ، لنرى

مبلغ صحة الاحكام التي استخلصتها الجريدة منها .

مثال النمسا

من المعلوم ان اراضي الامبراطورية النمسوية توزعت — بعد الحرب العالمية الاولى — بين خمس دول ، ولكن يجب ان لا يغرب عن البال ، ان هذا التوزع انما تم — بوجه عام — على اساس اللغات التي يتكلم بها السكان : فقد انفصلت عن النمسا ، الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة عن لغتها ، واما الشعوب التي تتكلم بلغة واحدة ، فلم تنقسم الى دول عديدة ، بل اتحدت بعضها مع بعض ومع الشعوب المماثلة القاطنة خارج حدود الأمبراطورية النمسوية ، فكل من دول بولاندا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، تضم الآن بلاداً كانت نمسوية واخرى كانت غير نمسوية .

ونستطيع ان نقول لذلك : ان الامبراطورية النمسوية ، اذا اعطتنا ، من ناحية ، بعض الامثلة على الانفصال ، فانها تعطينا في الوقت نفسه ، امثلة عديدة اخرى على الاتحاد . كما انها تعلمنا ان الاتحاد او الانفصال بين هذه الشعوب ، انما تم حسب الوحدة او الاختلاف بين لغاتها .

ولاظهار هذه الحقيقة الى العيان بوضوح تام ، ارى ان اتوسع قليلاً في بيان كيفية تكوين دولة من الدول التي « انبثقت عن الامبراطورية النمسوية » حسب تعبير الجريدة نفسها :

كان في النمسا ثلاثة شعوب تتكلم بلغة سلافية خاصة تعرف باسم « السلافية الجنوبية » . هذه الشعوب هي : البوشناق ، والكروات ،

والسلوفان . وكانت بلاد الكروات والسلوفان تؤلف ايالتين متمتعتين باستقلال داخلي واسع النطاق : كان لكل منهما مجلس تمثيلي خاص بها ، يعرف باسم الـ « دييت » ، ويتمتع بسلطات تشريعية هامة .

ومع هذا ، نجد ان هذه الايالات الثلاث لم تؤلف — عند انفصالها عن النمسا — ثلاث دول مستقلة بعضها عن بعض ، بل انها اتحدت فيما بينها من ناحية ، ومع مملكتين مستقلتين عن النمسا من ناحية اخرى. هاتان المملكتان ، هما مملكة الصرب ومملكة الجبل الأسود . وتكونت بذلك دولة واحدة ، جمعت تحت راية واحدة سكان الايالات النمسوية الثلاث ، مع سكان المملكتين المذكورتين.

وقد تم تكوين هذه الدولة الموحدة ، مع ان الايالات المذكورة كانت تتمتع باستقلال داخلي واسع النطاق ، ومع انه كان على رأس كل واحدة من المملكتين المذكورتين اسرة مالكة قديمة ، اشتهرت احداها بكثرة الروابط التي تربطها بالاسر المالكة الأوروبية ، عن طريق القرابة أو المصاهرة .

اتحدت هذه الوحدات الخمس ، وكونت دولة موحدة ، سميت في بادىء الامر باسم طويل ، يجمع اسماء الشعوب المكونة لها : الدولة الصربية الكرواتية السلوفانية . ولكنها ، بعد مدة ، رجحت أن تختصر هذا الاسم وتستبدل به اسماً يدل على (اللغة الجامعة) بين هذه الشعوب. فسميت لذلك باسم الـ(يوغوسلافيا). بمعنى (السلافية الجنوبية) .

ولا شك في ان يوغوسلافيا التي تكونت في نفس الوقت الذي

انفصلت فيه الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، اذ أصبحت الآن من الدول القوية التي تحسب لها جميع الدول حسابها . واذا استطاعت ان تقوم بدور خطير بين الكتلتين الغربية والشرقية ، فان الفضل في ذلك يعود — في الدرجة الأولى — الى انها دولة موحدة ، جمعت ابناء اللغة الواحدة ، ووجهت اعمالها واعمالهم نحو غاية واحدة .

ويظهر من كل ما تقدم ، ان تاريخ يوغوسلافيا يضع امام انظارنا حادثين متعاكسين ، حدثا في وقت واحد : حادث انفصال من ناحية وحادث اتحاد من ناحية اخرى ؛ انفصال عن الايالات النمسوية التي يتكلم سكانها لغة غير اليوغوسلافية ، واتحاد بين الايالات والممالك — النمسوية وغير النمسوية — التي يتكلم سكانها اللغة المذكورة .

ويتبين من كل ذلك ، بكل وضوح وجلاء : ان مثال «الدول المنبثقة عن الامبراطورية النمسوية » بعيد كل البعد عن تأييد رأي القائلين بأن انقسام البلاد العربية إلى دول عديدة — عقب انفصالها عن السلطنة العثمانية — كان من الأمور الطبيعية .

فانى أقول بلا تردد : ان من يقصر النظر ، امام هذه الوقائع التاريخية والاجتماعية المعضلة ، على صفحاتها الانفصالية دون أن يلاحظ الصفحات الاتحادية التي ترافقها يبقى غافلاً عن حقائق التاريخ والاجتماع ، ويعرض نفسه لاخطاء فادحة جداً ، في أمر تقدير دلالة هذه الوقائع التاريخية ، بالنسبة إلى العالم العربي الذي نعيش فيه الآن .

كما ان من لا يلاحظ الدور الخطر الذي قامت به اللغات في التاريخ الحديث لا يستطيع ان يفهم سير هذا التاريخ على وجهه الصحيح .

نعم ، كان من الامور الطبيعية ان تنبثق عن السلطة العثمانية — في الادوار المختلفة من تاريخها الحديث — دول عديدة ، مثل اليونان . وبلغاريا . ورومانيا ، والبانيا ... نظراً لاختلاف لغات سكانها ؛ ولكن ما كان من الطبيعي ابداً ان تنبثق عنهـــا دول عربية عديدة ، مثل العراق وسوريا والاردن ، مع وحدة لغاتها.

ولذلك اكرر في هذا المقام ، ما قلته سابقاً : ليس في استطاعة اي باحث كان ان يعلل نشأة الدول المذكورة ، دون ان يرجع الى اطماع الدول الاستعمارية ، واتفاقاتها السياسية .

مثال المانيا

واما مثال المانيا ، فهو ايضاً بعيد عن تأييد مزاعم الجريدة بعداً كبيراً . فلننعم النظر في الوقائع والحقائق قليلاً :

يقولون في سياق الرد على دعـــاة الاتحاد ، في استشهادهم بالوحدة الالمانية : « ولكن المانيا شعب موحد عنصراً وتاريخاً وارادة ومصلحة » .

ويجدر بنا ان نسألهم في هذا المقام : متى كان الشعب الالماني موحداً في التاريخ اكثر من الشعب العربي ؟

والارادة الموحدة التي يشيرون اليها ، متى تكونت ، ومتى ظهرت الى عالم الوجود ؟

والمصلحة الموحدة التي يذكرونها ، متى اصبحت من الامور المسلم بها ، في المانيا وفي خارج المانيا ؟

هل كان ذلك كله ، قبل سنة ١٨٧٠ ؟

يشهد التاريخ بأعلى صوته ان المانيا كانت منقسمة الى دول ودويلات كثيرة وكثيرة جداً ، وان هــذه الدول والدويلات كانت متخالفة ، ومتنافسة ، ومتنابذة ، وكان عددها يزيد على الثلاثمائة حتى اواخر القــرن الثاني عشر ، وكان يبلــغ تسعاً وثلاثين ، سنة ١٨٧٠ .

وكان على رؤوس هذه الدول ، مئات من الاسر المالكة ، تتمتع بحقوق تاريخية من مراتب ودرجات مختلفة ، منذ القرون الوسطى .

وشعوب هذه الدول ايضاً كانت بعيدة عن الشعور بالوحدة القومية . هذا كان يعتبر نفسه بروسياً ، لا يفتخر بشيء غــير البروسية . وذلك يشعر بانه بافاري ، لا يسوغ له ان يقدم شيئاً على البافارية ، وهكذا ، كان هذا فرنكونياً، وذلك ساكسونياً ، هذا هسياً وذاك بومرانياً ، الى آخر ما هنالك من الاسماء والنعوت التي تدل على الدول والشعوب . وكان كل واحد من الالمان ، ينتسب الى دولة خاصة من هــذه الدول الكثيرة ، والى وطن خاص من هذه الاوطان العديدة ، ولا يشعر بوجود وطن عام يعلو هذه الاوطان .

وكان رجال السياسة ، في هذه الدول المختلفة، يقولون على الدوام بوجوب المحافظة على الاوضاع الراهنة ، وذلك تماماً، كما

يفعل خصوم الاتحاد العربي الذين يعيشون بيننا الآن !

وكانت المنافسات قائمة على قدم وساق ، بين مختلف الملوك والأمراء ، بمقياس اوسع بكثير من التي قامت في البلاد العربية ، في السنين الأخيرة .

وكان « حفظ التوازن » بين بعض الاسر المالكة من أسمى غايات الساسة الواقعيين .

وخلاصة القول : ان وحدة الأمة ، ووحدة الوطن ، بل كل ضروب الوحدة كانت بعيدة عن الاذهان وعن النفوس .

ووحدة المصلحة أيضاً ، كانت من الامور التي لا يدركها أحد من رجال الحكم والسياسة ، ولا يسلم بها أحد من الملوك والامراء في اوائل القرن التاسع عشر .

إنها كانت تصطدم على الدوام بمقاومة اصحاب المصالح الاقليمية ومزاعمهم التقليدية ، ولم تستطع ان تتغلب على هذه المزاعم وتلك المقاومة إلا بعد جهود شاقة ، بذلها جيل من القوميين ، في مختلف الاقطار الالمانية . جهود شاقة ، استمرت عدة عقود من السنين ، لاقناع رجال السياسة ورجال الاقتصاد ، شيئاً فشيئاً ، في مختلف الدول الالمانية .

وأما وحدة الارادة ، فهي أيضاً كانت من الامور التي لا وجود لها في المانيا . إنها لم تظهر إلى عالم الوجود ، وتسيطر على النفوس إلا بعد مناقشات عنيفة ، ومعارضات شديدة ، وتجارب مريرة . استنفدت جهود الكثيرين من رجال الفكر والسياسة ، المؤمنين بوحدة الأمة الالمانية — وعرضتهم إلى شتى ضروب الانتقادات

والاتهامات ، من الاستسلام إلى الأحلام ، والغفلة عن مصالح البلاد ، إلى خيانة الأوطان .

إن كل من يدرس تاريخ الوحدة الالمانية بشيء من التفصيل ، يجد بين صحائفه كثيراً من المناقشات التي تشبه تمام الشبه المناقشات التي تجري في يومنا هذا ، في مختلف أقطار العالم العربي حول قضايا الاتحاد ، ويعثر على كثير من الحجج والبراهين التي تماثل تمام المماثلة الحجج والبراهين التي يتسلح بها خصوم هذا الاتحاد في هذه الأيام .

وأما الذين يدعون الآن بأن احوال العرب لا يمكن أن تقاس بأحوال الالمان ، لأن « المانيا شعب موحد تاريخاً ومصلحة وارادة » ... فانهم إذا برهنوا على شيء ، فانما يبرهنون على انهم لم يطلعوا على تاريخ وحدة المانيا إطلاعاً كافياً !

فخير لهم أن يكفوا عن محاولة استعمال أمثال هذه الاسلحة التاريخية التي ترتد عليهم ، وتجرح آراءهم في الصميم .

فوائد ومضار

●

ان اغرب وابدع ما قرأته من المزاعم فيالمقالات التي نشرها خصوم « فكرة الاتحاد » هو : نظريتهم القائلة بفوائد التجزئة ومضار الاتحاد .

نعم ، انهم يقولون ذلك ، ليس في مقام الهزل والتهكم ، بل بكل جد ووقار . انهم يريدون ان يقنعوا قراءهم بأن « التجزئة تفيد البلاد العربية فوائد كبرى ، واما الاتحاد او الوحدة ، فانها تضر العرب ابلغ الاضرار » .

واما برهانهم الاساسي على ذلك ، فيتلخص بما يلي :

ان الدول الصغيرة تضمن مصالح الشعوب وتساعد علىتنمية امكانياتها ، اكثر من الدول الكبيرة . واما ما هو شائع في الأذهان من ان القوة بالوحدة او الاتحاد ، فيجب ان لا يؤخذ على علاته . لأن المثل المذكور « لا يحدد مدى الوحدة ولا عدد المتوحدين » فأولى به « ان ينطبق على اصغر عدد واضيقمجال » .

وهم يريدون ان يقولوا بذلك : ان الاتحاد يكون قوة داخل كل دولة من الدول العربيةعلى حدة . ولكنه لا يكونقوة ، اذا ما خرج خارج حدود هذه الدول ، وشمل اثنين او اكثر منها .

انهم يكررون هذه النظرية في عدة مواضع من كتاباتهم

بعبارات صريحة .

« يسهل العمل ويعمق ، ويعطي النتائج المجدية، كلما انحصر مجاله ، وضاق » .

انهم يقولون ذلك ، ولكنهم لا يسيرون مع مقتضيات قولهم هذا الى النهاية ، ولا يقولون لماذا يتوقفون في هذا المضمار عند حدود الدول القائمة ، ولا يقترحون تجزئة هذه الدول ايضاً الى اجزاء اصغر فأصغر ، ما داموا يزعمون ان النتائج تكون اجدى « كلما انحصر المجال وضاق » ؟

ومع هذا ، نحن نكتفي هنا ، بتسجيل قولهم بان الخير كل الخير للبلاد العربية ان تبقى منقسمة كما هي الآن ، لكي تنمي امكانياتها تنمية تامة ، وتنتقل الى النظر في الدليل الواقعي الذي يذكرونه للبرهنة على صحة قولهم في هذا المضمار .

هذا الدليل ، في نظرهم ، هو المملكة الاردنية .

فيجدر بي ان انقل فيما يلي نص العبارات التي سردوا بها هذا الدليل الباهر ، بصراحة ما بعدها صراحة :

« هذه الاردن ، مثلاً ، استطاعت — لانها دولة مستقلة — ان تنشىء جيشاً ما كان ينشأ لو ان الاردن بقيت محافظةسورية ، او راحت تمد في مساحة العراق ، وتزيد في عدد سكانه » .

اعترف بانني كدت اشك في صحة بصري ، عندما قرأت هذه العبارات للمرة الاولى ...

انهم يعلنون اغتباطهم لبقاء الاردن مستقلاً عن سوريا وعن العراق ... لأن هذا الانفصال والاستقلال ادى الى تكوين هذا

الجيش الذي يعرف باسم « الجيش العربي » ؟

ولكن ، هل فاتهم ان الجيش الذي يعنونه يعمل تحت امرة قواد وضباط من الانكليز ، ويعيش بالاعانة السنوية التي تتفضل بها بريطانيا العظمى على هذه الدولة الصغيرة ؟

وهل يظنون ان الاستقلال عن سائر البـــلاد العربية ، أهم وأجدى من الاستقلال عن السيطرة البريطانية ؟

وهل يعتقدون ان الاستغناء عن مساعدة سائر البلاد العربية أهم وأكرم من الاستغناء عن الإعانة التي تقدمها دولة غير عربية؟

اني اكتفي بتدوين هذه الاسئلة وأترك أصحاب هذه النظرية يفكرون فيها ، ما وسعهم التفكير ، لكي يتثبتوا من قوة البرهان الذي طلعوا به علينا ، لاثبات نظريتهم البارعة .

★

ولكن خصوم الاتحاد العربي لا يكتفون بذكر فوائـــد التجزئة وتمجيد خيراتها ، بل انهم يسترسلون بعـــد ذلك ، في تعداد مضار الاتحاد أيضاً .

« إن الاتحـــاد يحول دون تنمية الامكانيات ... انه يؤخر الشعوب عن تحقيق مصالحها ... انه يؤدي إلى افقار الجميع .. »

إنهم يقولون ذلك بعبارات صريحة دون أن يروا لزوماً لتأييد مزاعمهم هذه ببراهين واقعية .

واما أنا ، فسأتبرع باتمام ما تركوه ناقصاً في هذا المضمار ، وسأذكر سلسلة امور تتمشى مع منطق هذه المزاعم :

منها : ان مدينة روما ، انقطعت عن التقدم ، بعدما فقدت

الاستقلال الذي كانت تنعم به حتى سنة ١٨٧٠ فـاندمجت في المملكة الايطالية ...

ومنها : ان مدينة جنيف لم تستطع ان تنمي جميع امكانياتها بل تأخرت كثيراً في مضمار الرقي ، منذ انضمامها إلى الاتحـاد السويسري .

ومنها : ان مدينة هامبورغ انحطت إلى دركة ميناء من موانيء الدرجة الثالثة بل الرابعة . منذ تنازلت عن استقلالها ، وانضمت إلى الاتحاد الالماني ..

اني لا اريد ان اطيل هذه السلسلة ، وأقول بلا تردد : ان ما يزعمه خصوم الاتحاد في هذا المضمار لا يصح إلا إذا صحت الوقائع التي ذكرتها آنفاً .. بعد ان اختلقتها اختلاقاً ، مخالفـاً بذلك ، كل الحقائق الراهنة مخالفة تامة .

★

ولكن جعبة خصوم الاتحاد مملوءة بسهام مسمومة أخرى . يحاولون ان يصيبوا بها فكرة الوحدة والاتحاد في الصميم :

إن الاتحاد أو الوحدة ، تضر البلاد العربية لأنها :

أ ــ تؤدي إلى توسيع نطاق الاقطاعيات .

ب ــ تساعد على ترسيخ أقدام الاستعمار .

ج ــ تسبب تفشي الشيوعية في البلاد .

واليكم البعض من الفقرات التي تسرد هذه المزاعم ، وتوضحها .

بعبارات صريحة :

« المصلحة العليا تقضي بتوطيد الاوضاع الراهنة .

« ان الافادة الحقة للشعب ـ من حيث ترقية معيشته ، ورفع نفسية افراده ، وتدريب مؤهلاتهم ، وتوفير المقومات الطبيعية التي تحررهم ـ لا يتسنى شيء منها الا ضمن الاوضاع الدولية القائمة » .

« ... ان الاتحاد (كل اتحاد) لن يكون له ومنه سوى نتيجة واقعية واحدة ، وهي ازدياد نفوذ عائلة (اياً كانت) في وجه عائلات ، وتكبير دولة على حساب دول .

« ونحن نرى ان ذاك الاتحاد ، وكل اتحاد ، سيكون له نتيجة واقعية اخرى ، وهي وحدها التي يجب ان يحسب حسابها : انها تؤخر الشعوب عن تحقيق مصالحها ، فضلاً عما تنتجه من فسحة لمصالح الاستعمار .. »

« .. ان مكافحة الشيوعية ، ليست ممكنة في الشرق الادنى ، الا اذا بقيت الاوضاع الدولية الراهنة. لأن كل اتحاد او وحدة ، يؤدي حتماً الى بسط اقطاعية شديدة ، تكمن فيها المحاذير التي تستدعي الشيوعية وتوابع الشيوعية ... »

اني لم انقل هذه الفقرات ، لكي ارد عليها ، لأني اعتقد بانها في غنى عن كل رد وتعليق .

انما نقلتها ، ليرى القراء كيف يستميتون في الدفاع عن الاوضاع القائمة ، وكيف يتخبطون في التماس الوسائل التي قد

تساعد على ابعاد « خطر الاتحاد » عن جميع البلاد العربية .

انهم يلتمسون الحجج من كل حدب وصوب ،ولا يتورعون في آخر الامر عن الاستنجاد بـ « بعبع الشيوعية ايضاً » .

انهم ينتظرون من « حنكة السياسة البريطانية » ـ هذا هو تعبيرهم ـ ان تقدر هذه الحقيقة حق قدرها ، فلا تفتح باباً للشيوعية عن طريق فتح باب الاتحاد بين الاردن والعراق !.

ـ ١٩٥١ ـ

ردود على جريدة العمل

« لسان حـــال الكتائب اللبنانية »

نشرت جريدة العمل ست مقالات تحت عنوان « الوحدة العربية بيننا وبين فيلسوفها العلامة الحصري » (الاعداد الصادرة في ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٠ آب ، و ٢ أيلول ١٩٥١) .

أبدت العمل في هذه المقالات عدة ملاحظات ونظريات لتنفيد آراء القـــائلين بالوحدة العربية، ولكنها أقحمت بين هذه الملاحظات والنظريات كثيراً من الأمور التي لا تمت الى أساس الموضوع بصلة حقيقية . كما انها انحرفت أحيانا عن « واجب الامانة » في نقل وعرض الآراء التي أقدمت على تفنيدها .

اني لن أحصي هنا على جريدة العمل، كل ما جاء في مقالاتها من مآخذ وأخطاء. بل سأحصر بحثي بما هو أنفع من ذلك وأجدى : سأستعرض الآراء والنظريات الأساسية الواردة فيها، لاطلاع القراء على أهم البراهين التي سردت لتفنيد فكرة الوحدة والاتحاد ، ولاظهار الحقيقة في قيمة هذه البراهين وقوتها .

الاستشهاد بسنن الحياة العادية

تزعم جريدة العمل بأنني «أربأ بالفلسفة أن تنزل إلى مستوى الحياة العادية » وتدعوني إلى التأمل في «المثل الساذج» الذي تضربه لتوضيح مواقف كل من دعاة الوحدة العربية ومعارضيها .

إني لست من الذين يتلذذون بالهيام في سماء الفلسفـــات ، ولذلك ألبي دعوة « العمل » بكل ارتياح، وأصغي إلى ما تقوله في هذا الصدد بكل انتباه .

وانقل فيما يلي « المثل » الذي نشرته ، بنصه وفصه :

*

« ما فتىء الجواب الأصح على كل « الفلسفات » التي تسعى لتزيين الوحدة المثلّ الساذج البسيط ، المستمـــد من سنن الحياة اليومية :

« عائلة واحدة (ولنسلم جدلاً بان هذه الشعوب من عائلة واحدة جنساً واصلاً) اراد كل فرد من افرادها ان يبني لنفسه بيتاً مستقلاً ، ويؤسس عائلة ، يتولى بنفسه مسؤوليتها .

« أفرأيت احداً يتنكر لهذا الفرد ، ام ان الجميع يحبذونه ، ويرون انه انما يزيد في قوة العائلة الاصلية بما يضيفه اليها وبمـا يستقل به .

« حديثنا (نحن دعاة التجزئة رعاك الله) ! مع دعاة الوحدة وفلاسفتها يختصر بهذا المثل :

ـ اريد ان انام في غرفة مستقلة .

ـ خسئت ، بل ننام في غرفة واحدة » .

*

انا لا ادري بأي حق تعتبر جريدة العمل الدعوة الى الاتحاد بمثابة دعوة الى النوم في غرفة واحدة ؟

يظهر انها تتوهم بأننا ندعو الى جمع الأقطار العربيـــة في « دولة شديدة التمركز » ، على غرار الدول العربيـــة القائمة الآن ، في حين ان ذلك يخالف الحقيقة والواقع مخالفة كلية .

اني لم اكن من محبذي « نظام المركزية » الذي تسير عليـه

الدول العربية في الحالة الحاضرة .فقد انتقدت هذا النظام بشدة ، ودعوت الى اللامركزية في مناسبات عديـــدة . ولم اقصد من اللامركزية توسيع سلطات رؤساء الدوائر الادارية فحسب ، بل قصدت توسيع سلطات المجالس التمثيلية المختلفة ، الى حد تخولها حق فرض ضرائب خاصة ايضاً .

وقد قلت ــ في السنة الماضية ــ بمناسبة قانون اصدرته احدى الدول العربية ــ ، « باننا نخطىء خطــأ عظــيماً اذ نظن ان الديموقراطية تقوم على الحياة البرلمانية وحدهــا . لأن اسس الديموقراطية الحقيقية هي المجالس التمثيلية المحلية. واما البرلمانات فما هي ــ في حقيقة الامر ــ الا بمثابة التيجان التي تتوج مجموعات المجالس التمثيلية المحلية » .

فمن ينتقد الدول العربية القائمة على تمسكها بنظام المركزية ، ويستحثها على تكوين مجالس تمثيلية محلية ذات سلطات حقيقية ، هل يمكن ان يقصد من « اتحاد » هذه الدول ، دعوة الى تكوين « دولة شديدة المركزية » ؟ فكيف يجوز تشبيه دعوته بالدعوة الى النوم في غرفة واحدة !

هذا ، ولازالة كل الشكوك من اذهان محرري «العمل» في هذا المضمار ، أرى ان اعلن الحقائق التالية :

عندما اثيرت ــ قبل بضع سنوات ــ قضيـــة اتحاد سوريا والعراق ، لم اتردد في القول بوجوب اقامة الاتحاد المذكور على اساس النظام الفدرالي . واستطيع ان اؤكد بان المشروع الذي وضع عندئذ لتحقيق ذلك ، كان مؤسساً على النظام المذكور ،

فكان يترك لكل واحدة من الحكومتين المذكورتين الحرية الكاملة لتنظيم وتصريف شؤونها الخاصة وفق قوانينها الخاصة ، حسب النظم المعتادة في الدول الفدرالية .

ولذلك كله ، استطيع ان اقول بكل تأكيد : ان المثل الذي ضربته جريدة العمل ، لا ينطبق على حقائق الامور ، بوجه من الوجوه .

*

واما المثل الذي ينطبق على مواقف كل من دعاة الاتحاد ومعارضيه انطباقاً صحيحاً — في حدود التشبيه الذي سطرته العمل — فهو غير ذلك تماماً :

إن البيوت المذكورة في التشبيه قائمة في منطقة غير مأمونة ، معرضة لتعديات اللصوص وقطاع الطرق ، ولذلك تحتاج إلى حراس ، يدفعون عنها شرور هؤلاء . وفعلاً ، يستخدم أصحاب كل واحد من تلك البيوت حراساً لهذا الغرض .

ونحن نقول : لماذا تنفرد كل واحدة من العائلات التي تسكن تلك البيوت بحراسة خاصة بها ؟ لماذا لا تشترك مع شقيقاتها لايجاد « حراسة مشتركة » تضمن الامن والطمأنينة لجميعها ، على أحسن الصور وأفعلها ؟

ثم ان اصحاب هذه البيوت لا يعيشون بمعزل عن العالم، بل ان كل واحد منهم يتصل على الدوام بالخارج ، بوسائط مختلفة وبأساليب متنوعة .

ونحن نقول : لماذا يحاول كل واحد من أصحاب تلك البيوت ،

ان يشق لنفسه طريقاً خاصاً به، وينشيء على هذا الطريق الجسور والمعابر التي يحتاج اليها، دون ان يشركه في أمرها احداً من أشقائه؟

لماذا يهيء كل واحد منهم طائفة من وسائل الاتصال، تختص به دون غيره؟ لماذا لا يشترك جميع هؤلاء مشاركة فعلية لاستكمال وسائل الاتصال وتنظيم أساليبه ؟

إن الفرق بين مواقف دعاة الاتحاد ومواقف معارضيهم، يتجلى اكثر ما يتجلى، بهذا المثال .

نحن لم نقل ابداً : يجب أن ننام في غرفة واحدة، بل نقول : يجب ان نوحد جهودنا في بعض الأمور . ونقصد من ذلك، توحيد شؤوننا الدفاعية وامورنا الخارجية بوجه خاص .

وأما معارضو الاتحاد، فيقولون : كلا، نحن نود ان نبقى مستقلين في كل شيء ...

حتى ان عدداً غير قليل منهم يقول اكثر من ذلك . انهم يقولون : ونود كذلك ان تبقى جميع البيوت الاخرى ايضاً مستقلة بعضها عن بعض في كل شيء ...

أنا أفهم ان يقول احد أصحاب هذه البيوت — أو احد رؤساء هذه العائلات : أنا اود ان أبقى مستقلاً في جميع شؤوني، مهما كلفني ذلك من جهود ومشاق وأضرار .

أنا افهم ذلك، فأقول : في هذه الحالة، ما على أصحاب البيوت الأخرى، إلا ان يحترموا ارادته، ويتركوه وشأنه، يواصل تجربته في السير في السبيل التي اختارها لنفسه .

ولكني لا افهم ابداً، ان يذهب الرجل إلى حد ابعد من ذلك،

ويقول : واود — فضلاً عن ذلك — ان تبقى سائر البيوت ايضاً مستقلة تمام الاستقلال .

انا لا افهم ذلك ، واعتقد — في هـــذه الحالة — انـــه يحق لأصحاب البيوت الاخرى ان يقولوا له ، بكل حزم : اما هذا ، فلا !

أفلا يحق لي ان استغرب كل الاستغراب عندما ارى ضجيج المعارضين يعلو ويشتد ، كلما حاول اثنان او ثلاثة من اصحاب هذه البيوت ان يهدموا الجدران الفاصلة بـــين حدائقهم ، وان يوحدوا حراسهم ووكلاء امورهم ؟...

أفلا يحق لي ان استنكر كل الاستنكار الاصوات التي ترتفع للحيلولة دون هذه الجهود الاتحادية ، زاعمة ان اي تغيير في عدد هذه البيوت وهذه العائلات يضر الجميع ، مدعية بأن الاوضاع الحالية يجب ان تبقى كما هي ، دون تغيير ، الى الابد ؟...

اعتقد ان التشبيه الذي يمثل مسالك دعاة الاتحاد ومعارضيه اصدق تمثيل ، هو هذا المثال الاخير .

ألم يكن مصدر الضجيج الذي قـــام الآن ، هو « المشروع الذي يرمي الى توحيد المملكة الاردنية مع دولة عربية اخرى ، بصورة من صور الاتحاد » ؟

★

ها اني لبيت دعوة «العمل» ، ودرست القضية ، دون ان اطرق باب فلسفة من الفلسفات ، ودون ان انحرف عما سمته « العمل » سنن الحياة العادية . ومع ذلك توصلت الى نتائج منطقية ، تختلف عن التي توصلت اليها جريدة « العمل » في هذا المضمار ...

هذا ، وتنتقل « العمل » — عقب العبارات التي ذكرتها آنفاً — الى امر الشعوب العربية ، فتقول :

« كل شعب من الشعوب العربية يريد (او يجب او من المفضل) ان يبني بيتاً مستقلاً ، ويؤسس عائلة ، وينصرف الى رسالة ، خصوصاً وان احواله الطبيعية والجغرافية والتاريخية تسهل له ذلك .

« أفيكون في ذلك اضعاف للعائلة الاصيلة — ، ام ان ذاك مما يزيد في قوتها مادياً ومعنوياً ؟ »

وفي الاخير ، تسطر هذا السؤال :

« لسنا ندري ماذا تكون حجج الفلسفة ازاء هذا المنطق البديهي العادي المتوافق وسنن الحياة » .

اعتقد ان الامثلة التي سردتها آنفاً تغنيني عن الاجابة على هذا السؤال ..

ومع هذا ، ارى من المفيد — في هذا المقام — ان الفت الانظار الى الحقيقة التالية :

إن سنن الحياة لا تنحصر بأفاعيل الانفصال والانفراد ، بل انها تشمل كثيراً من افاعيل التكتل والاتحاد ايضاً . ولذلك نستطيع ان نقول : ان كل من يلاحظ في سنن الحياة غير الأفاعيل الانفصالية ، يبقى بعيداً جداً عن تفهم حقيقة تلك السنن — ولا سيا في كل ما له اتصال بالحياة الاجتماعية ...

حول الشواهد التاريخية

●

مثال يوغوسلافيا

تعود « العمل » إلى بحث الشواهد التاريخية ، وتتوسع في الكلام عن مثال يوغوسلافيا . فتقول أولاً :

« لا نعرف ما الذي ساق مثل يوغوسلافيا إلى ذهن ، وتحت قلم علامتنا الجليل . فنحن لم نقل ، بل لا يمكن أن نفكر ، ان وقائع التاريخ لا تؤيد سوى اقوالنا ! لأننا نعرف ان هذا المسكين التاريخ ، يمنح لمن يريد الفتوى التي يريد . وبقليل من اللباقة والرشاقة ، يفسح مخرجاً لكل المتناقضات » .

اعترف بانني قرأت هذه العبارات بحيرة عميقة جداً .

أولاً ، لأن جريدة العمل ، هي التي كانت ساقت مثال يوغوسلافيا إلى ذهني وتحت قلمي ، عندما أرادت ان تستشهد بتاريخ النمسا ، فسألت : « كم دولة انبثقت عن النمسا ؟ » وانا كتبت ما كتبته في هذا الصدد لاظهار الحقيقة في قيمة البراهين التاريخية التي استشهدت بها « العمل » نفسها .

ثم ، إذا كانت « العمل » تعتقد حقاً بأن « التاريخ يمنح لمن يريد ، الفتوى التي يريد ، فلماذا لجأت إلى الاستشهاد بالتاريخ

وذكرت ما ذكرته من الأمثلة ؟

هذا ويترتب علي ان اصرح في هذا المقام ، بأني لا اشارك «العمل» في الرأي الذي ابدته حول شهادات التاريخ بوجه عام.

اعرف ان هذا الرأي قد شاع كثيراً ، منذ ان اذاعه أحد كتاب فرنسا ومفكريها المشاهير ، بأسلوبه الأدبي الأخاذ . ولكني أعتقد بأنه بعيد عن الحقيقة بعداً كبيراً .

صحيح ... ان رجال السياسة كثيراً ما يحاولون ان يتسلحوا بحجج تاريخية ضالة ومضللة–محرفة من أصلها ، او مختلقة من اساسها – ولكن للنقد العلمي مناحي واصولاً ، تفضح امثال هذه الضلالات والتضليلات ، وتظهر الحقائق التاريخية إلى العيان ، على الرغم من كل الجهود التي قد تبذل لسترها عن الأبصار .

وانا شخصياً كتبت مقالات كثيرة لتصحيح اوهام بعض كتاب التاريخ ، ولرفع النقاب عن عوامل الضلال واساليب التضليل في الكتابات التاريخية [1] ولكني لم أستنتج من ذلك كله ، ان التاريخ « بقليل من اللباقة والرشاقة يفسح مخرجاً لكل المتناقضات » .

ومن حسن الصدف ، ان جريدة العمل نفسها اعطتنا – في مقالاتها هذه–مثالاً جديداً على محاولة استخدام التاريخ لأغراض معينة ، بشيء غير قليل من اللباقة والرشاقة . ولكني اعتقد ان قليلاً من البحث والتفكير سيكفي لاظهار الحقيقة في هذا الشأن ، ولهدم كل ما بنته تلك المحاولة ، على الرغم من كل اللباقة والرشاقة

---

[1] آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع ، بيروت ١٩٦٠ .

اللتين رافقتاها .

تقول جريدة العمل :

« لا يجهل علامتنا الجليل ان الاتحاد اليوغوسلافي لم يلتئم بعد ، لأن اقوامه لم ترتح اليه . ولا يجهل حضرته ان كلاً من الايالات والمملكتين في الاتحاد اليوغوسلافي منحت استقلالاً ذاتياً واسعاً جداً ، لتسكت عن الاتحاد . ولا يجهل كم تكلفت وكابدت المملكة لتدعيم وحدة ليست طبيعية في رأي اهاليها — ولا يجهل ان الملك اسكندر ذاته الذي بفضل صفاته وميزاته تأخر تصديع الاتحاد ، قد قتله دعاة الانفصال والاستقلال تعجيلاً لاستقلالهم وانفصالهم » .

انا اعترف ان محرر «العمل» قد اظهر الشيء الكثير من «اللباقة والرشاقة» ، اذ سرد الوقائع سرداً يلائم الغرض الاصلي كل الملاءمة ، مما يجعل القارىء ميالاً الى تصديق كل ما قيل في هذا الكتاب .

الا ان سحر هذه اللباقة والرشاقة يزول حالاً ، اذا ما خطر على بال القارىء ان يسأل : متى واين كان ذلك ؟ وماذا حدث بعد ذلك ؟ في اي تاريخ قتل الملك اسكندر ؟ وكيف تصدع الاتحاد بعد قتله ؟

لأن الاجوبة الواقعية التي لا بد من ان يتلقاها على هذه الاسئلة ، تفهمه على الفور ، بانه — عندما قــرأ تلك العبارات كان امام مرافعة محام يسعى للدفاع عن قضيته بكل ما يخطر بباله من حجج وبراهين ، ولو كانت بعيدة عن الصواب ... لا امام بحث عالم يسعى وراء اظهار الحقيقة ، او حاكم لا يحكم الا بالحق ...

ان هذه الاجوبة تعلمه : بان الملك اسكندر قتل سنة ١٩٣٤

وذلك عندمـــا كان خارج بلاده ، يقوم بزيارة رسمية للحكومة الفرنسية . وقد مضى على مقتله سبعة عشر عامـــاً ، لم يتصدع خلالها « الاتحاد اليوغوسلافي » ولم يحدث « الانفصال » الذي اشارت اليه جريدة العمل في مقالتها هذه .

لقد تكوّن الاتحاد اليوغوسلافي ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى ، منذ ثلث قرن تقريباً . وخلال هذه المدة ، تعرضت يوغوسلافيا لعدة عواصف سياسية هوجـــاء ، وشهدت سلسلة طويلة من الانقلابات الخطيرة . انهـــا عرفت عهد الوصاية ، واجتازت الأزمة الخطيرة التي قامت بين ولي العهد وبين الوصي على العرش ، في أشد الاوقات حراجة من تاريخهـــا المعقد ، ثم منيت بانكسار جيوشها ، واحتلال بلادها واضطرار حكومتها الى الانتقال الى البلاد الاجنبية .

وبعد ذلك شاهدت زوال الملكية وقيام الديكتاتورية ، وفي آخر الامر صارت شيوعية ، داخلة في الكومنفورم ، ثم شيوعية خارجة عليه .. وعلى الرغم من جميع هذه الازمات والانقلابات السياسية الخطيرة – الداخلية والخارجية – بقيت «دولة اتحادية» .

فلا ادري بأي حق ، وبأي منطق ، تقوم جريدة العمل ، وتدعي بان اتحاد يوغوسلافيا لم يلتئم بعـــد ، وان اهاليها غير راضين بهذا الاتحاد !..

*

هذا ، وتنتقد « العمل » بشدة ما كنت قلته في مقالتي عن فضل الوحدة على يوغوسلافيا ، فتقول :

« اما قول علامتنا الجليل : اذا اصبحت يوغوسلافيا الآن من

الدول القوية التي تحسب جميع الدول حسابها، وإذا استطاعت ان تقوم بدور خطير بين الكتلتين الغربية والشرقية ـ فان الفضل في ذلك يعود، في الدرجة الاولى، إلى انها دولة موحدة، جمعت أبناء اللغة الواحدة، ووجهت اعمالها واعمالهم نحو غاية واحدة. لا شك ان علامتنا الجليل شاء ان يسخر وهو يرسل هذا التأكيد الجازم فليس هو من يجهل، حتى ولا قراؤه، ما هي العوامل الاستثنائية والظروف الخارجية التي مكنت يوغوسلافيا الآن، أن تقوم بدور خطير (كذا) بين الكتلتين الغربية والشرقية ـ وانها عوامل وظروف لا تمت ابداً لكون يوغوسلافيا دولة موحدة..»

ولكني اؤكد لجريدة العمل، باني قلت ما قلته في هذا الصدد، بكل جد، وبعد التأكد من صحته كل التأكد.

اولاً: اود أن الفت الانظار الى عبارة «في الدرجة الاولى» التي قيدت بها قولي هذا. فهي تدل دلالة صريحة على ان العوامل الاستثنائية والظروف الخارجية التي تشير اليها العمل، لم تكن بعيدة عن ذهني ابداً، عندما سردت رأيي في هذا الصدد.

وبعد ذلك، اسأل: ان هذه العوامل والظروف الاستثنائية كلها، هل كان يمكن ان تأتي بهذه النتائج، لو لم تكن يوغوسلافيا موحدة؟

ان «العمل» تزعم ذلك، بدليل قولها: «انها عوامل وظروف لا تمت ابداً لكون يوغوسلافيا دولة موحدة».

ولكني، امام هذا الزعم القاطع، ادعو الى التأمل في هذه القضية بشيء من التوسع والتعمق: لنفرض ان الاراضي التي

تعرف الآن باسم يوغوسلافيا ، كانت توزعت بين خمس دول ودويلات . وكان بعض هذه الدول ملكية وبعضها جمهورية ، وكان بين رؤساء هذه الدول ملك يحمل في قلبه حقداً دفيناً على ملك آخر ، لأنه كان استولى على عرش والده ... فهل كان يمكن – في تلك الاحوال – ان تستفيد الدول المذكورة من العوامل والظروف المساعدة التي تشير اليها العمل ؟

وهل من مجال للشك في ان تلك البلاد ، لو كانت تجزأت على المنوال الذي ذكرته آنفاً ، لأصبحت في حالة بلبلة وفوضى ، شبيهة بالاحوال التي تتخبط فيها الدول العربية الآن ، ولمال بعضها نحو الكتلة الغربية وبعضها نحو الكتلة الشرقية ، وتذبذب بعضها بين هذه وتلك . وعلى كل حال ، لما استطاعت الشعوب اليوغوسلافية ان تستفيد – قدر ذرة – من الظروف والعوامل المساعدة التي تشير اليها جريدة العمل .

ولا ادري كيف يمكن لأحد ان ينكر – دون ان يخرج على ابسط قواعد العقل والمنطق ، وعلى اثبت حقائق التاريخ والاجتماع – « بان الفضل في قوة يوغوسلافيا الحالية ومكانتها الراهنة ، انما يعود – في الدرجة الاولى – الى كونها دولة موحدة ؟ »

اني اعتقد : ان انكار هذه الحقيقة ، يكون بمثابة انكار وجود الشمس في رائعة النهار .

مثال المانيا

لقد تطرقت جريدة العمل الى مثال المانيا ايضاً . ولكنها لم

تستطع ان تظهر في امرها اللباقة التي اظهرتها عندما تكلمت عن يوغوسلافيا .

لانها قالت من جهة « ان الوحدة الالمانية تسهلت لان الشعب الالماني موحد عنصراً وتاريخاً وارادة ومصلحة» ،ولكنها زعمت من جهة اخرى « ان الالمان يسعون لان تجزأ المانيا إلى اربع دول بحسب منطق الطبيعة والتاريخ » .

وها اني انقل فيما يلي ، نص ما كتبته العمل في هذا الشأن :

« حتى الوحدة الالمانية — مثال الوحدات ، وحجة دعاة الوحدة — لا يمكن التأكيد انها نهائية ،وان اهلها يرضون بها إلا في وجه الاعداء مع العلم ان توحيد المانيا لم يتم إلا في أيام هتلر ، وبفضل تعسف ديكتاتوريته (يوم محا هتلر بقايا الانفصال، كان اغتباطه الأعظم انه لم يحصل رد الفعل الذي كان يتحسب له .)

«ثم ان الالمان الذين لا يريدون ان تكون رسالة بلادهم وعبقريتها في معاداة جيرانها ، يسعون لان تجزأ المانيا إلى اربع دول ، بحسب منطق الطبيعة والتاريخ . وكاد حلمهم يتحقق ، لولا التوازن الذي تحتاج اليه ابداً السياسة الاوروبية .

« ولقد قلنا ان الوحدة الالمانية تسهلت لان الشعب الالماني موحد عنصراً وتاريخاً وارادة ومصلحة » .

يؤلمني ان اقول — تعليقاً على هذه الفقرات — بأني لم اصادف طوال حياتي احتشاد هذا القدر الكبير من المزاعم والمدعيات الاعتباطية والآراء المتناقضة ، في مثل هذا العدد القليل من الاسطر والفقرات !

إني لا أرى لزوماً لتنفيذ جميع هذه المزاعم واحداً فواحداً. ولكني لن امنع نفسي من لفت الانظار إلى ما في هذه الأقوال من تناقض صارخ : إذ كيف يمكن التأليف بين قول « العمل» بأن « الالمان شعب موحد تاريخاً » وبين قولها « ان منطق التاريخ يقتضي تجزئة المانيا إلى أربع دول » ؟ أفلا يوجد تناقض صريح بين قولها « ان الالمان شعب موحد ارادة ومصلحة » ، وبـين زعمها بأن « الالمان يسعون لان تجزأ المانيا إلى اربع دول ، حسب منطق الطبيعة » !

وأما القول بأن مفكري الالمان يحلمون بتجزئة بلادهم إلى أربع دول ، وان حلمهم هذا كاد يتحقق لولا التوازن الذي تحتاج اليه السياسة الاوروبية ، فهو قلب للحقائق التاريخية رأساً على عقب.

فان الوقائع التاريخية تشهد شهادة قاطعة على ان تجزئة المانيا لم تكن من أحلام مفكري الالمان ، بل كانت من اماني أعدائها المنتصرين عليها . و «وحدة المانيا» لم تتم بسبب مطالب السياسة الاوروبية ، بل انها تمت بمشيئة الشعب الالماني وعلى الرغم من مخالفة السياسة الاوروبية .

يظهر ان جريدة العمل انخدعت في هذا الصدد بالكتـابات المغرضة والمضللة التي كان ينشرها كتاب فرنسا السيـاسيون ، خدمة لمصالح فرنسا الخاصة .

إني لن ارجع إلى وقائع القرن التاسع عشر . بـل سأكتفي بالتذكير ببعض الوقائع التي حدثت بعد الحرب العالمية الاولى ، لاظهار الحقائق المتعلقة بهذه القضية إلى العيان ، بكل وضوح وجلاء.

اولاً : يجب ان لا يغرب عن البال ان تحول المانيا ، من امبراطورية اتحادية الى دولة موحدة ، قد تم في عهد جمهورية «فايمار» ، في الوقت الذي كان هتلر لا يزال جندياً برتبةعريف.

ثانياً : يجب ان نتذكر جيداً ، ما كان حدث في النمسا ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى :

عندما اندرست امبراطورية هابسبورغ ، وانفصلت المناطق السلافية عن النمسا ، اجتمع نواب المناطق الباقية وكونوا مجلساً وطنياً اعلن بالاجماع «ان النمسا جزء من الدولة الالمانية » ،وطلب الانضمام اليها . الا ان الحلفاء حالوا دون تحقيق امنيتهم هذه ، ووضعوا في معاهدة الصلح التي فرضوها على النمسا مادة تحظر عليها الانضمام الى دولة اخرى « دون موافقة عصبة الامم . »

ومما هو جدير بالذكر بوجه خاص ، ان قرار الانضمام الى المانيا صدر من مجلس نواب النمسا في الوقت الذي كان هتلر لا يزال بعيداً ، ليس عن دست الحكم فحسب ، بل عن مسرح السياسة ايضاً .

ثالثاً : يجب انلا ننسى ما حدث في «السار» خلال مذاكرات الصلح وبعدها : كانت فرنسا تحلم منذ مدة طويلة بالاستيلاء على السار وبايصال حدودها الشمالية حتى نهر الرين . وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى بانتصار الحلفاء ، قام ساسة فرنسا يطالبون بفصل السار عن المانيا ، تمهيداً لادخالها تحت حكم فرنسا . ولكن مجلس الحلفاء لاحظ ان طلب فرنسا في هذا الباب يخالف مبدأ « حق تقرير المصير » الذي اعلنه الرئيس ويلسن ،ومع هذا اراد

ان تماشي فرنسا ، فقرر وضع نظام خاص للسار : تبقى هـذه المنطقة منفصلة عن المانيا ، مدة خمس عشرة سنة ، وبعـد ذلك يستفتى السكان لتقرير مصير بلادهم بصورة نهائية .

وقد تم فعلاً تطبيق هذا النظام ، وظل اقليم السار منفصلاً عن المانيا تمام الانفصال خلال المدة المقررة في معاهدة الصلح . وبعد انقضاء هذه المدة ، جرى الاستفتاء على يد هيئة دولية ، انتخبتها وعينتها عصبة الامم . وقد طلب الى السكان ان يصوتوا لأحـد الحلول الثلاثة التالية :

١ ـ الانضمام الى المانيا .

٢ ـ الاستمرار على الحالة الراهنة .

٣ ـ الانضمام الى فرنسا .

واما نتائج هذا الاستفتاء ، فقد جاءت حاسمة تماماً : اكثر من تسعين في المائة من السكان صوتوا للانضمام الى المانيا .

هذا ، على الرغم من الانفصال الفعلي الذي فرض على البلاد فرضاً ، وعلى الرغم من الدعايات والمناورات التي قام بها رجال فرنسا في السار ، خلال خمسة عشر عاماً .

ان عصبة الامم ، لم تسلم ادارة السار الى المانيا ، الا بعد هذا الاستفتاء الذي اجرته بروح الحياد التام .

ومما يجدر بالذكر انه في ذلك التاريخ ، ما كان يوجد في السار فرد واحد من الجيش الالماني ، وكانت الادارة والامن في عهدة هيئة دولية تابعة لعصبة الامم .

وقد بددت نتائج هذا الاستفتاء ، جميع الاوهام التي كان

ينشرها كتاب فرنسا ، زاعمين ان أهل السار يكرهون الالمان ، ولا يرضون بعودة بلادهم إلى الحكم الالماني أبداً ...

هذه وقائع ثابتة، من الماضي القريب الذي لم ينقطع بعدُ جيل شهوده وكتابه .

ان نظرة واحدة إلى أي مصدر من المصادر التي استعرضت وسجات وقائع ما بعد الحرب العالمية الأولى ، تكفي للتأكد من صحة كل ما ذكرناه آنفاً .

وهل في استطاعة «العمل» — امام هذه الحقائق الثابتة — ان تتمسك بقولها « ان اتحـاد المانيا تم أيام هتلر بفضـل تعسف ديكتاتوريته » ، وان تكرر زعمها بأن مفكري الالمان « يحلمون بتجزئة بلادهم إلى اربع دول» و «ان حلمهم هذا كاد يتحقق» لولا مخالفة السياسة الأوروبية ؟

مثال الاتحاد السوفياتي

ومن أغرب الامور ، ان جريدة العمل تستشهد بمثال الاتحاد السوفياتي أيضاً ، للبرهنة على ان انقسام البلاد العربيـة إلى دول عديدة كان من الامور الطبيعية والضرورية :

قالت في احدى مقالاتها «ان الاتحاد السوفياتي بنى اتحاده على مصلحة شعوبه العليا » و « جعل من مقاطعات روسيا السابقـة دولاً متميزة الكيان والملامح » .

كما انها أشارت في مقالتها الأخيرة إلى ان الاختبار السوفياتي يشهد بأن الممالك الواسعة «إذا شاءت ان تزيل الاقطاعية اضطرت

إلى تقسيم مناطقها إلى دول مستقلة » .

تعلمنا «العمل» ، بهذه العبارات الصريحة ، ان الدولة المعروفة باسم «الاتحاد السوفياتي» قسمت مناطقها إلى جمهوريات «مستقلة ، متميزة الكيان والملامح » ، ولكنها لا تقول لنا ما اذا كانت قد جعلت تلك الجمهوريات مستقلة في الامور الدفاعية والخارجية ايضاً.

فأرى من حقي ان اسألها : هل منح الدستور السوفياتي ، كل واحدة من الدول التي يتألف منها الاتحاد ، حق التمثيل الخارجي ؟ وهل جعل كل واحدة منها ذات جيش خاص بها ؟

لا شك في ان «العمل» لا تجهل ان الدستور السوفياتي يسلم زمام الشؤون الخارجية والدفاعية كلها لحكومة الاتحاد ، دون سواها .

ان الدستور المذكور يمنح كل واحدة من الجمهوريات التي تؤلف السوفيات ، حق الخروج من الاتحاد — اذا شاءت — ولكنه لا يمنحها حق التفرد بأي شأن من الشؤون الخارجية والعسكرية .

ان الاتحاد السوفياتي يكوّن اكبر وأوسع الاتحادات التي عرفها التاريخ . إنه لم يكتف بجمع وتوحيد الشعوب التي تتكلم بلغة واحدة ، بل جمع كثيراً من الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة أيضاً . انه منح تلك الشعوب استقلالاً داخلياً واسع النطاق ، ومع هذا جعله « خاضعاً للاتحاد» خضوعاً تاماً ، في كل ما له مساس بالشؤون الخارجية والأمور الدفاعية .

ولذلك كله أستغرب كل الاستغراب ، كيف اقدمت «العمل» على الاستشهاد بمثال الاتحاد السوفياتي للبرهنة على ان تجزئة البلاد

العربية إلى دول عديدة من الامور الطبيعية ؟

هذا ، وأرى من حقي ان اسأل جريدة العمل : هل انها ترى من الموافق ان تعمل البلاد العربية بما يوحيه « الاختبار السوفياتي » ، — من وجهة التنظيم السياسي — فتكوّن اتحاداً شبيهاً بالاتحاد السوفياتي ؟

إذا وافقت «العمل» على ذلك ، فاني على تمام الاستعداد لان اضع يدي في يدها ، وأعلن على الملأ بأنه لم يبق بيني وبينها أي وجه للخلاف ...

★

أنا افهم أن يذكر « الاختبار السوفياتي » عندما تجري مناقشة حول المفاضلة بين نظم المركزية واللامركزية والفدرالية.، ولكني لا أفهم ان يذكر « الاتحاد السوفياتي » عندما تناقش قضية الاتحاد أو عدم الاتحاد من أساسها ...

نظرية تعدد الدول حسب تعدد اللهجات

●

طلعت علينا «العمل» — في مقالتها الخامسة — بنظرية جديدة ، لتعليل وتبرير انقسام البلاد العربية إلى دول عديدة : هي نظرية قيام الدول على أساس اللهجات .

تتكلم «العمل» عن «أمر اللهجات العربية» ، وتشير إلى «اختلافها البين الشديد من دولة إلى دولة» ، ثم تقول :

«كفى دليلاً على ان كل دولة ، إنما تشكل «كياناً واقعياً» (ولو سخر علامتنا من التعبير) وتشكل وحدة قائمة بذاتها ، اللهجة التي يتفاهم بها شعب كل دولة : لهجة خاصة متجانسة ضمن حدودها ، ومختلفة عن لهجة الجيران والاخوان !

«حدود كل لهجة ، هي ذاتها حدود كل دولة» .

وبعد هذا الحكم البتار ، تواصل الكلام عن اختلاف اللهجات في البلاد العربية :

«قال علامتنا الجليل انه في تجوله بين سوريا والعراق ، لم يشاهد ما يمكن أن يميز مقاطعة في هذه الدولة عن مقاطعة في تلك ، ولا ماذا يجعل الواحدة عراقية والثانية سورية .

«ترى ، ألم يسمع علامتنا ما الذي يميز العراقي عن السوري؟

« اللهجة ليست حدثاً طارئاً عابراً ، ولكنها الشاهد على ذهنية جيل وعلى عنصرية ، وعلى بيئة تاريخية وجغرافية .

« فلماذا تختلف اللغات (ولنسمها لهجات) بين دولة ودولة في « البلاد العربية » وفي « الشعب العربي » ؟

« من جهتنا ، لم يتسن لنا برهان قاطع بعد انها اتفاقية سايكس بيكو هي التي قسمت اللهجات ووزعتها ، وباينت ما بينها .

« اذا لم يكن غير الاطماع الاستعمارية من عامل جزّأ البلاد العربية وقسمها الى دول ، فكيف نشرح هذه الظاهرة الفريدة : ان اللهجة العراقية لا تتعدى العراق — واللهجة السورية لا تتعدى سورية — واللهجة المصرية لا تتعدى مصر — واللهجة الفلسطينية لا تتعدى فلسطين — واللهجة اللبنانية لا تتعدى لبنان .

« هذه الظاهرة ألا تدل على شيء ؟ ألم تكن اللهجات بتباينها ، موجودة قبل ان «اوجدت» اتفاقية سايكس بيكو هذه الدول ؟»

وبعد هذه البيانات والاسئلة ، تقول « العمل » :

« نعرف الجواب .

« انه جواب تقليدي جاهز :

« ان هذه اللهجات منبثقة عن لغة واحدة ، وان في كثير من الدول تتباين اللهجات من مقاطعة الى مقاطعة ، وان هذه الشعوب العربية مهما اختلفت لهجاتها تفهم لغة واحدة » .

وبعد هذا الجواب الذي اعطته « العمل » بنفسها لنفسها ، راحت تستنتج من ذلك ما راق لها من الاستنتاجات .

ولكن «العمل» اخطأت الصواب ، عندما تنبأت بما سيكون عليــه جوابي انا ، وقالت « ان الجواب معلوم ، هو الجواب التقليدي الجاهز . »

ومع هذا ، انها سترى الآن ان جوابي على اسئلتها يختلف عما توقعته هي — بهذه الصورة — كل الاختلاف ؛

فاني سألاحظ اولاً : ان محرر العمل ذكر اللهجــات التي كونت الدول العربية ، واحدة فواحدة ، ولكنه لم يذكر اللهجة الاردنية ابداً . هل كان ذلك ذهولاً ؟ ام كان لأن المحرر شعر بنفسه ان هذه النظرية مهما بولغ في امرها ، لا يمكن ان تنطبق على احوال الاردن ؟ وهل لي ان استدل من ذلك : ان المحرر يعترف بذلك ضمناً — على الاقل — بان الدولة الاردنية غير طبيعية ؟

وبعد هذه الملاحظة الاستطرادية العابرة ، انتقل الى اصل البحث ، واقول بلا تردد :

انا لا اسلم بوجود لهجــة عراقيــة « متجانسة ضمن حدود العراق » ، و « مختلفة عن لهجات الجيران والاخوان » ... كما تزعم بذلك جريدة العمل .

ومع اني تجولت في مختلف انحاء العراق مدة عشرين عاماً ، لم اطلع على وجود « لهجة تنطبق حدودها عــلى حدود الدولة العراقية » ابداً .

وقد عرفت حق المعرفة بان ما يسمى عادة «اللهجة العراقية» ليس — في حقيقة الامر — الا لهجة بغداد — ، وما يتصل بها من اواسط العراق . كما عرفت جيداً بان لمنطقة الموصل ، لهجة خاصة

بها، تختلف عن اللهجة البغدادية اختلافاً كلياً، ليس ببعض الألفاظ والكلمات فحسب، بل بكيفية نطقها و اعراب كلماتها أيضاً، فلو كانت حدود كل لهجة هي حدود كل دولة ـ كما تزعم «العمل» ـ لوجب أن تكون الموصل، دولة منفصلة ومستقلة عن العراق؛

هذا، واني استطيع ان اقول نفس الشيء، بكل تأكيد، عن سورية ومصر، وعن سائر البلاد العربية ايضاً.

إن ما يسمى عادة «اللهجة السورية» هو ـ في حقيقة الأمر ـ لهجة دمشق وما جاورها من أقسام الشام، أما منطقة حلب، فلها لهجة خاصة، تختلف عن لهجة دمشق وما جاورها اختلافاً كبيراً.

كما ان ما نسميه عادة «اللهجة المصرية» لا يشمل جميع أقسام القطر المصري، فان لبلاد الصعيد لهجة خاصة بها، تتميز عن لهجات سائر أقسام القطر المصري بأجمعها تميزاً صريحاً...

ولا أظن ان «العمل» نفسها، تستطيع ان تبرهن على وجود لهجة لبنانية، تنطبق حدودها على حدود لبنان السياسية.

وأستطيع ان اؤكد بأن اللهجات في البلاد العربية كثيرة ومتنوعة جداً: فلو كان «عدد الدول وحدودها» من الامور التي تتعين وتتقرر بعدد اللهجات وحدودها، لوجب ان تنقسم كل واحدة من الدول العربية القائمة الآن ايضاً إلى دويلات عديدة.

*

وبعد كل ما ذكرته آنفاً، أقول بلا تردد: ان تعليل تجزئة البلاد العربية ـ وتبرير تعدد دولها ـ باختلاف اللهجات، لهو من أوهى المبررات وأغرب التعليلات.

والتجاء «العمل» إلى مثل هذه التعليلات الواهية، إن دل على شيء فانما يدل على حيرتها من أمرها، وعجزها عن العثور على أدلة معقولة تبرر «تعدد الدول العربية»، وتبرهن على ان هذا التعدد، هو من الأمور الطبيعية.

حول العنصرية

أثارت العمل في عدة مواضع من مقالاتها قضايا العنصرية، وتكلمت عن الأصل والسلالة والدم..

إنها سألت في احدى المقالات: «ماذا يعني اننا عرب؟ وكيف نحن عرب؟ أجنساً ودماً، أم مولداً وموطناً ونشأة؟»

ثم توجت عنوان احدى مقالاتها بهذا السؤال:

«هل ثمت شعب عربي؟ أم شعوب تنطق العربية؟»

إنها زعمت بأن الشعب الالماني موحد عنصرياً، وبعد أن اكدت على «وحدة الشعب الالماني العنصرية» وجهت إلي هذا السؤال:

«هل سكان البلاد العربية شعب عربي، ام شعوب تنطق بالعربية؟»

وأما انا، فلا أرى اي وجه لمثل هذه الاسئلة، لأني لا اعرف اي مبرر كان للتمييز بين «الشعب العربي» وبين «الشعوب التي تنطق بالعربية».

فاني أعلم العلم اليقين: ان الابحاث العلمية برهنت برهنة

قاطعة على انه لا يوجد على وجه البسيطة شعب منحدر من اصل واحد حقيقة .

لا توجد في المانيا «وحدة عنصرية» ، كما تزعم ذلك جريدة العمل : ان سكان البلاد الالمانية المان ، على الرغم من كونهم منحدرين من اصول مختلفة .

وكذلك الفرنسيس والروس والاتراك ، وسائر الشعوب والامم ، كلهم بعيدون عما يسمى « الوحدة العنصرية » ، او « وحدة الاصل والدم » بعداً كبيراً .

والعرب لا يختلفون عن هذه الامم في هذا المضمار ، بطبيعة الحال .

واما محاولة التمييز والتفريق بين « العرب » وبين « الناطقين بالعربية » — اي بين الـ arabe وبين الـ arabophone حسب تعبير الفرنسيين ، فهو من وسائل التضليل والتفرقة التي كثيراً ما يلجأ اليها الكتاب المستعمرون .

*

هذا ، ومن المفيد ان اذكر في هذا المقام : ان الجنرال غورو كان يذكر «السوريين» في كتاباته الرسمية سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ بقوله : « الشعوب السورية التي تتكلم العربية » ، والحكومة العربية السورية القائمة عندئذ كانت تحتج على هذه التسمية وهذا التعبير بصورة رسمية .

وكانت قد جرت بيني وبين جماعة من الفرنسيين مناقشة حول هذا الموضوع ، قلت لهم خلالها : هل تفكرون مثل هذا التفكير

عن اهل بلادكم ايضاً ؟ هل تسألون مثل هـــذه الاسئلة عن الـ « بروتون والنورمان ، واللورين ... » الذين يسكنون المقاطعات الفرنسية المعلومة ، مثلاً ؟ وهل تسمحون ان يقال عنهم « انهم ليسوا فرنسيين، وانما هم ناطقون باللغة الفرنسية Francopone ؟ لماذا تقيسون شؤوننا بمقياس يختلف عن المقياس الذي تقيسون به شؤونكم ، اختلافاً كبيراً ؟ »

اظن ان ما قلته وقتئذ لهؤلاء ، يغنيني عن قول شيء جديد الآن ، رداً على سؤال جريدة العمل في هذا الباب .

*

ومع هذا ، اود ان انقل في ما يـــلي ، بعض الفقرات من محاضرة كنت القيتها في نادي المعلمين ببغداد :

« ان جميع الامم مختلطة ومتداخلة من حيث الاصل والدم ؛

« انني أشبه الامم من هذه الناحية بالأنهـــر العظيمة . فمن المعلوم ان كل نهر من الأنهر ، تجري فيه مياه أتت من منابـــع ومصادر وروافد مختلفة . والأنهر الكبيرة تكون كثيرة المنابـــع وعديدة الروافد بوجه عام ...

« هذا نهر دجلة، مثلاً : من منا يستطيع ان يجزم من اين أتت المياه التي تسيل فيه الآن؟من يستطيع ان ينكر ان هذه المياه آتية من نواح مختلفة جداً ؟ كلنا نعلم ان قطرات هذه المياه، قد تكون متأتية من العيون التي تنبع من تحت التراب او من بين الصخور؟ وقد تكون متولدة من ذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال ، وقد تكون آتية من السيول المتكونة من هطول الامطار.وكل ذلك قد

يكون من جراء ما حدث في اعالي الزاب ، او على سفوح جبل حمرين ، أو في سهول الموصل ، أو على جبال زاخو ، او في ديار بكر ... ومهما كان الأمر ، فان جميع هذه المياه المختلفة المصدر تسير الآن جنباً إلى جنب ، في مجرى واحد ، وتكون هذا النهر الذي يجري أمامنا . إننا نسمي هذه المياه باسم مياه دجلة ، من غير ان نفكر في منشأها الخاص ، او ان نتساءل عن طول المدة التي مضت منذ التحاقها بهذا المجرى الطويل ، وانتسابها إلى هذا النهر العظيم .

« إن احوال الامم ومنابعها تشبه ذلك شبهاً كبيراً .

« إن الانجليزي المثقف لا يعرف ما إذا كان بينه وبين شكسبير او نيوتون ، او ميلتون ، رابطة أصل ونسب . ومع ذلك فانه يعتبر هؤلاء اجداداً له واسلافاً ، ويفتخر بهم اكثر مما يفتخر بأجداده الحقيقيين .

« وكذلك الفرنسي المثقف . فانه لا يتساءل عما إذا كان يجري في عروقه حقيقة شيء من دم شارلمان ، او راسين ، او فولتير ، ومع هذا ، فهو يعتبر هؤلاء كلهم اجداداً له وأسلافاً ، ويعتز بهم اكثر مما يعتز ببني اسرته الاقربين .

« فيجدر بنا نحن العرب ايضاً ان نحذو حذو هؤلاء : قد لا نعرف ما إذا كان يربطنا شيء من أواصر القرابة والنسب بسعد بن ابي وقاص ، مثلاً ، او خالد بن الوليد ، او ابن الهيثم ، او أبي العلاء المعري ، ولكننا مع ذلك يجب ان ننتسب إلى هؤلاء وإلى أمثالهم ، ونعتبرهم أجدادنا المعنويين ، ونفتخر بهم أكثر مما نعتز

ونفتخر بأبناء اسرنا الحقيقيين.» : (آراء وأحاديث في الوطنية والقومية . ص ٢٤ و ٢٥) .

*

إن المؤمنين بفكرة القومية العربية يقولون « اننا عرب » بهذا المعنى ، لا بمعنى « اننا متحدرون من الجزيرة العربية » .

قضايا مختلفة

●

كلمة الوحدة

لقد أنهت جريدة العمل مقالتها الاولى بالعبارات التالية :

« اما حقيقة الخلاف بيننا ، فعلى كلمات .

« فالوحدة كلمة اكثر مما هي فكرة .

« الوحدة كلمة . أرادوا ان يجعلوها مقام فكرة » .

اني قرأت هذه العبارات[1] ، بحيرة عميقة جداً . لأني لست من الذين يخضعون تفكيرهم لسيطرة الكلمات ، فلا يمكن ان اختلف مع احد من جراء كلمات لا تعبر عن فكر .

و « الوحدة » في نظري أسمى بكثير من ان تكون كلمة ، انها تدل على فكرة سامية . وفكرة الوحدة ، انما هي من الفكر الفعالة التي تحرك الهمم ، بقوة كبيرة . انها من « الفكر القُوانية » التي غيرت معالم خارطة اوروبا السياسية ، تغييراً كبيراً جداً ، في مدة لا تزيد على نصف القرن كثيراً .

ولا ادري كيف سوغت « العمل » لنفسها القول بان الوحدة كلمة أرادوا ان يجعلوها مقام فكرة !

---

١ نسبة الى « القوى » كقولك روحاني وعلماني الخ . (الناشر)

حديث الاقطاعية

تقحم «العمل» قضية الاقطاعية، بين ابحاث الوحدة العربية، لأنها تزعم بان الوحدة تؤدي حتماً الى توسيع الاقطاعية وتقويتها.

واما انا فأؤكد كل التأكيد ان كرهي للاقطاعيــة ، ليس أقل من كره جماعة « العمل » لها ، واصرح باني اقدر المساعي التي تبذل لمحاربة الاقطاعية كل التقدير . ومع هذا ، لا ارى اي مبرر كان لاقحام الاقطاعية بين ابحاث الوحدة العربية .

لأني اعتقد: ان صغر الدولة لا يضمن خلاصها من الاقطاعية، كما ان كبرها لا يحول دون تأسيس الحكم الشعبي فيها .

ولا أراني في حاجة الى ذكر الامثـال وإقامـة البراهين على صحة قولي هذا . لأن اقرب الحوادث الينـا ــ زمناً ومكاناً ــ مليئة بالامثلة الحاسمة على هذه القضية .

مصالح الشعب

تدعو العمل في مقالتها الاخيرة الى الاهتمام بمصالح الشعب، فتقول :

« إن الغاية الاساسية من السياسة انما هي خدمة مصالح الشعب»

« والهدف الاوجب للسعي ، في شرقنـا وفي احوالنا ، هو نهضة الشعب ، في افراده وفي مجتمعه .

« وذلك لا يتسنى الا باستنباش وتحقيق امكانات كل منطقة، وكل نفس » .

إني اوافق على هذه الآراء تمام الموافقة . لأني قضيت حياتي

في العمل في هذا السبيل ، ودعوت على الدوام إلى التقدم والنهوض ، كما دعوت غير مرة إلى الثورة والانقلاب ، لتسريع التقدم المنشود .

ولذلك ، اني احبذ كل التحبيذ كل دعوة ، وكل مشروع ، وكل عمل ، يرمي إلى انهاض الشعب نهضة حقيقية .

*

غير اني اختلف مع محرر «العمل» كل الاختلاف ، عندما أراه يعقب على العبارات التي ذكرتها آنفاً ، بهذا الزعم الغريب :

« من هنا نرى ان تقسيم البلاد العربية إلى دول يسهل تلك المهمة » .

إن بطلان هذا الزعم واضح كل الوضوح :

لان البلاد العربية مجزأة فعلاً إلى دول ودويلات ، ومع هذا ، لا تزال تحكمها حكومات لا تعمل لمصالح الشعب الحقيقية !

فأرى لزاماً علي ان اكرر هنا ما قلته آنفاً عن قضية الاقطاعية : ان مبلغ خدمة الحكومات لمصالح الشعب ورفاهيته لا تتبع كبر الدول او صغرها .. إنما تتبع نظم الحكم وأجهزة الادارة القائمة فيها ، من ناحية ، ومبلغ اخلاص القابضين على زمام الحكم والادارة — مع درجة فهمهم لمقتضيات الحكم الصالح والحضارة العصرية ، من ناحية أخرى .

*

تقول العمل : « إنما الدولة تنساق للتغاضي عن مصالح الشعب والأفراد ، يوم يكون همها الأول تثبيت وحدتها على جيش قوي

مثلاً وعلى محالفات أجنبية » .

وأما انا فأقول : ان الدولة القومية لا تحتاج إلى جيش قوي لتثبيت وحدتها أبداً ..

يلوح لي ان « العمل » تخلط هنا بين الدول القومية وبين الامبراطوريات .

لان الامبراطوريات تحكم قوميات عديدة ومتنوعة ، ولذلك تحتاج إلى جيش قوي لتثبيت حكمها على تلك القوميات .

وأما الدولة القومية ، فلا تحكم إلا أمة واحدة ، ولـذلك لا تحتاج إلى مثل ذلك الجيش . فان الوحدة فيها ، تكون طبيعية وطواعية .

*

إن الملاحظات التي ابدتها «العمل » تخولها — منطقياً — ان تطلب من دعاة الاتحاد ان يكونوا — في الوقت نفسه — من دعاة الاصلاح وعمال الانهاض ، ولكنها لا تخولها قط — ان تطلب اليهم ان يكفوا عن العمل في سبيل الاتحاد ، لكي لا يتأخر التقدم والاصلاح .

وهنا ، لا بد لي من التصريح بأنني قلت وكتبت مراراً بأن الفكرة القومية ، يجب ان تكون مقترنة بالنزعة التقدمية ، ويجب ان تتجرد عن كل انواع النزعات الرجعية ...

وأرى من المفيد ان انقل فيما يلي ، العبارات التي كنت ختمت بها احدى محاضراتي :

« يجب علينا ان نسلك — بدون تأخر وبحزم واندفاع —

مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحيـــاة المادية والمعنوية والاجتماعية .

« التجديد في كل شيء : في اللغـــة والأدب ، في التربية والاخلاق ، في العلم والفن ، في السياسة والثقافـة ، في الزراعة والصناعة والتجارة ...

« التجديد في كل مكان : في البيت والمدرسة ، في القريـة والمدينة ، في الشارع والحديقة ...

« التجديد في كل زمان ، وفي كل شيء ، وفي كل مكان .. يجب ان يكون شعارنا على الدوام » [1]

كبر الدولة وصغرها

تقول « العمل » في احدى المقالات :

« إن الدول الكبرى – خصوصاً تلك التي تتألف من تجميع وحدات – لا تستطيع المحافظة على كيانها ، إلا بالتضييق على شعوبها وافرادها . فضلاً عن انها تستثير حذر جيرانها وريبتهم وعداءهم – وبالتالي ، فان جهودها تنصرف الى تدعيم كيانها كدولة على حساب السلم ، وعلى حساب رفاهية الشعب ، وعلى حساب حريات الأفراد » .

وأما انا ، فأقول بدون تردد : ان تضييق الدولة على حريات الافراد او عدم تضييقها ، وخدمة الدولة لرفاهية الشعب او عدم خدمتها ... ليست من الامور التي تتبع كبر الدولة او صغرها .

---

[1] آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ص ١٦

كم من دولة صغيرة تسير على سياسة استغلالية واستبدادية ، وكم من دولة كبيرة تعطي أرقى نماذج الحكم الصالح الذي يخدم رفاهية الشعب ، مع مراعاة حريات الافراد كل المراعاة .

اعتقد ان «العمل» تخلط هنا ايضاً، بين مسالك الامبراطوريات التي تحكم امماً عديدة ، وبين طبائع الدول القومية التي تقوم على رأس امة واحدة .

*

وفي الاخير ، اود ان الفت الانظار إلى احد المزاعم الواردة في هذه الفقرات :

تقول العمل : « ان الدول الكبيرة ... تستثير حذر الجيران وريبتهم وعداءهم » ، وتدعونا لذلك — ضمناً — إلى ان نبقى دولاً صغيرة ، لكي لا نستثير مثل هذا الحذر والريبة والعداء .

ولكني استغرب كيف فاتها ان ضعف الـــدول الصغيرة يستثير شهية الدول الكبيرة ، ويغذي اطماعها ، ويغريها على بسط نفوذها وسيطرتها عليها ؟

وكيف فاتها ، ان ما تحتاج اليه البلاد العربية الآن ، ليس عدم اثارة حذر الجيران وعداءهم ، بل هو وضع حد لاطماع الدول الكبرى ، ودفع عدوانها ؟...

نقد آراء

انطون سعادة

مؤسس الحزب السوري القومي

انطون سعادة وحزبه

*

لم يظهر في العالم العربي إلى الآن ، حزب يضـــاهي الحزب السوري القومي ، في الاهتمام بالدعاية المنظمة التي تخاطب العقل والعاطفة معاً ، وفي التنظيم الحزبي الذي يعمل بلا انقطـــاع في السر والعلن .

وقد استطاع هذا الحزب — بفضل تنظيماته — ان يوجد تياراً فكرياً وسياسياً قوياً جداً ، في سورية ولبنان .

فيجدر بنا ان نتساءل : ما هو حظ هذا التيار القـــوي من الصواب والصلاح ؟

اني لم استطع الوصول إلى جواب صريح وصحيح على هذا السؤال ، إلا سنة ١٩٤٨ ، خلال احدى زياراتي إلى بيروت ، حيث ساعدتني الظروف على الاجتماع بزعيم الحزب ومؤسسه انطون سعادة مرتين ، في جو عائلي هادىء ، بعيد عن المظاهر والرسميات .

وقد وجدت خلال هذين الاجتماعين مجالاً كافياً لمحادثته ومناقشته في مختلف المسائل العربية .

ونتائج هذه المحادثات والمناقشات ، عندما انضمت إلى المعلومات التي كنت قد حصلت عليها في أزمنة مختلفة — بصور متفرقة —

حول اعمال الحزب ونشاطه ، رسمت في ذهني الصورة التالية ، عن نشأة الحزب ، وعن نزعة زعيمه انطون سعادة :

أسس «سعادة» الحزب السوري القومي ، لمحاربة روح الطائفية والنزعة الانعزالية اللتين لاحظهما في لبنان ، في الوقت الذي ما كان يعرف بعد ، شيئاً يذكر عن احوال سائر البلاد العربية . ولذلك أخذ يدعو إلى فكرة «القومية السورية» منددا بالانعزالية اللبنانية الضيقة من ناحية ، وبالقومية العربية الشاملة من ناحية أخرى .

ولكنه .. عندما أخذ يطلع شيئاً فشيئاً على احوال البلاد العربية عن قرب ، لاحظ على الفور الروابط الوثيقة التي تربط سوريا والعراق ، من وجوه عديدة ، وأدرك بذلك ضرورة توسيع مفهوم القومية التي يدعو اليها .

غير انه – لغوصه في معامع النضال الحزبي السياسي – لم يشأ ان يعترف بخطأه الأول ، فلجأ إلى ادخال العراق في مفهوم « سورية الطبيعية » ، وأخذ يسميه باسم « سورية الشرقية » ، ووسع بذلك نطاق أهداف الحزب ، دون أن يغير اسمه .

إنه ظل معارضاً لفكرة القومية العربية ، ومع هذا ، ادرك ضرورة تأسيس « جبهة عربية » واعتقد انه يترتب على سورية ان تقوم بالدور الاهم في تكوين وتوجيه هذه الجبهة ، مع تقويتها على الدوام .

ولا شك في ان التطور الذي حصل في آراء انطون سعادة ، كان من شأنه أن يوصله – عندما يستمر – إلى تطور آخر ، ويحمله على تحويل فكرة «الجبهة العربية» بصورة تدريجية إلى نوع

من « الفدرالية العربية » ..

هذه هي الفكرة الاساسية التي تكونت في ذهني سنة١٩٤٨، بعد اجتماعي بزعيم الحزب، واطلاعي على نزعاته الاصلية .

وقلت في نفسي عندئذ : لا شك في ان الرجل ، سيلتقي بنا في آخر الامر ، عاجلاً أو آجلا .

★

ولكن الأمور تعقدت بعد ذلك بسرعة كبيرة، وانتهت انفاس الرجل فجأة في ظروف شاذة، جمعت خصائص الملهاة والمأساة.

مأساة وملهاة ، اشترك في تمثيلها على مسرح السياسة انطون سعادة وحزبه من ناحية، وحكومتا سوريا ولبنان من ناحية اخرى.

انتهت حياة الرجل ، وحلت الحكومة اللبنانية حزبه بصورة رسمية. ومع هذا، لا يخفى على احد ان تعاليمه لا تزال منتشرة بين طائفة غير صغيرة من الشبان اللبنانيين، كما ان الحزب نفسه لا يزال يواصل نشاطه في سورية، بصورة علنية، وبرخصة رسمية .

ولهذا، عندما قررت في اوائل هذه السنة ان أقوم بدراسة مقارنة عن الاحزاب السياسية الموجودة في مختلف البلاد العربية، رأيت من الضروري ان ادرس منهاج « الحزب السوري القومي الاجتماعي» دراسة مستفيضة ، فراجعت سكرتارية الحزب في دمشق، راجياً منها تزويدي بنسخة من منهاج الحزب ونظامه ، وفقاً للخطة التي رسمتها لنفسي مع سائر الاحزاب السياسية ، في سائر الاقطار العربية . وقد لبت السكرتارية طلبي على الفور ، بهمة اشكرها عليها ، وارسلت الي مجموعة كبيرة من نشرات

الحزب الدورية وغير الدوريـــة ، وفسحت بذلك امامي مجالاً واسعاً ، لدرس مبادىء الحزب وتعاليمه دراسة تفصيلية .

*

إن هذه الدراسة أيدت الرأي الذي كنت توصلت اليه قبلاً . وفضلاً عن ذلك ، انها أطلعتني على السبب الاصـــلي الذي كان يدفع زعيم الحزب إلى التحامل على « فكـــرة العروبة » ، ودعوة « القومية العربية » تحاملاً عنيفاً .

وقد علمت ان الدافع الاصلي لذلك كان إساءة فهـــم المعنى المقصود من كلمة « العروبة » ، ومن تعبير «القومية العربية » .

لأني لاحظت بكل وضوح ، ان فكرة العروبـــة كانت تختلط في ذهن انطون سعادة مـــع معاني البداوة الصحراوية من ناحية ، ومع الحزبية المحمدية من ناحية اخرى . قـــد توهّم الرجل ، ان فكرة « الوحدة العربية » ما هي إلا قناع يتقنع به دعاة الطائفية الاسلامية . ولذلك اخذ يحمل عليها ، كـــما كان يحمل على الطائفية بوجه عام .

وأميل الى الظن بان اول من صادفهم وخالطهم من دعـــاة العروبة وحملة الفكرة العربية كانوا من المسلمين ، وربما كانوا من الرجعيين والمذبذبين . ولذلك توهم ان كل دعاة العروبـــة طائفيون متسترون او متقنعون .

هذه هي « خميرة الضلال » التي عملت عملها في مشاعر زعيم الحزب ، وافسدت عليه تفكيره العلمي والاجتماعي والسياسي . هذا هو الخطأ الاساسي الذي جعله ينحرف عن جادة الصواب

انحرافاً كبيراً، ويخالف كثيراً من الحقائق العلمية مخالفة صريحة، حتى يناقض نفسه بنفسه احياناً .

إن الابحاث التالية ستبرهن على كل ما قلته آنفاً برهنة قاطعة.

★

هذا ، وإذا أردت ان الخص رأيي في انطون سعادة وفي حزبه — بعد هذه الدراسة المستفيضة — قلت ، بدون تردد :

لا يسعني إلا ان اعلن إعجابي بنشاط الرجل واندفاعه ، وتحبيذي لمعظم المبادىء الاصلاحية التي يذكرها في تعاليمه، كما لا يسعني إلا ان اقدر سعيه وراء دعم آرائه السياسية والاجتماعية بنظريات علمية . غير اني آسف كل الأسف على « خميرة الضلال » التي استولت على ذهنه، وأبعدته في كثير من المواقف والامور عن مناحي الابحاث العلمية ، وحجبت عن انظاره كثيراً من الحقائق الاجتماعية .

وكل ما أتمناه الآن من مريدي انطون سعادة ، ومعتنقي تعاليمه ، هو : ان لا يقفوا جامدين في المكان الذي كان وصل اليه زعيمهم ، ولا يبقوا متمسكين بالمواقف التي وقف عندها هو ، بتأثير خميرة الضلال التي ذكرتها آنفاً . بل يواصلوا « التطور » الذي كان قد بدأه ، وذلك بالتباعد عن « مواطن الخطأ » التي انزلق اليها مؤسس الحزب وبالتخلص من آثار « الخميرة الفاسدة » التي ذكرتها آنفاً .

وأرى انه يترتب عليهم ان يقتدوا بزعيمهم الراحل في روح النشاط والتنظيم الذي امتاز به ، دون ان يستمروا في السير

وراء خطاه ، فيستنفدوا قواهم في تأييد الاخطاء التي وقع فيها .

إني انشر هذه الابحاث الانتقادية املاً في مساعدة مريديه على التطور والتقدم ، في سبيل خدمة البلاد العربية ، ونهضة الامة العربية.

تنبيه

أرى من المفيد ان اذكر هنا ، الكتب الاساسية التي استندت اليها ، في ابحاثي عن آراء سعادة ، العلمية والاجتماعية والسياسية :

اولاً ــ كتاب « نشوء الامم » الذي ألفه ونشره لبيـــان « كيفية نشوء الامم وتعريف الأمة » .

ثانياً ــ الحلقة الثامنة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية ، التي جمعت طائفة من مقالاته ومحاضراته ، تحت عنوان « تعاليم وشروح في العقيدة القومية الاجتماعية » .

ثالثاً ــ الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث المذكورة ، التي جمعت طائفة من المقالات تحت هـــذا العنوان : « حاربنا العروبة الوهمية ، لنقيم العروبة الواقعية » .

لأني رأيت ان هذه الكتب الثلاثة تمثل آراء زعـــيم الحزب ومؤسسه احسن التمثيل ، إذ يبين الكتاب الاول آراءه العلمية ، والثاني تعاليمه السياسية ، والثالث مواقفه من القضايا العربيـــة .

هذا ، وسأقسم ابحاثي هنا ، إلى قسمين اساسيين. اناقش في القسم الاول «الآراء العلمية» بوجه عام ، بقطع النظر عن نتائجها السياسية ، وسأتكلم في القسم الثاني عن « الآراء السياسية » بوجه خاص ، مع مناقشة « الحجج العلمية » المسرودة لتأييد تلك الآراء.

نقد الآراء العلمية

*

نظرات في كتاب نشوء الامم

ان الكتاب الوحيد الذي ألفه ونشره انطون سعادة في علم الاجتماع ، يحمل هذا العنوان : « نشوء الأمم » .

وقد بنى سعادة آراءه السياسية على أساس النظريات الاجتماعية المسرودة في هذا الكتاب . ولذلك اشار إلى ابحاثه المختلفة ، في مواضع عديدة من خطبه ومقالاته وتعاليمه الحزبية والسياسية .

فيجدر بنا ان نبدأ ابحاثنا ، بدرس هذا الكتاب :

إنه يقع في ١٨٢ صفحة ، ويتضمن سبعة فصول ، تحمل العناوين التالية :

١ ـ نشوء النوع البشري
٢ ـ السلائل البشرية
٣ ـ الأرض وجغرافيتها
٤ ـ الاجتماع البشري
٥ ـ المجتمع وتطوره
٦ ـ نشوء الدولة وتطورها
٧ ـ الأمم الكنعاني

ويفهم من مقدمة الكتاب ـ المؤرخة بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٣٧ ـ ان المؤلف كتب الفصول الثلاثة الاولى ، قبل دخول السجن ، واتم الفصول الأربعة الباقية وهو في السجن ، « في أوائل مايو سنة ١٩٣٦ » .

كما يفهم منها : انه كان مصمماً على تأليف كتاب ثان متمم لهذا الكتاب ، يتكلم فيه عن « نشوء الامة السورية » بوجه خاص ، وكان قد وضع الملاحظات والمذكرات اللازمة لمؤلفه هذا ، إلا ان هذه المذكرات جميعها «صودرت اثناء الاعتقالات الثانية» ، فلم تسمح له ظروفه المختلفة ـ بعد ذلك ـ بانجاز تأليفه واخراجه إلى عالم الوجود .

فانحصر التأليف العلمي الوحيد الذي يحمل اسم انطون سعادة بهذا الكتاب الاول في « نشوء الامم » .

ويقول المؤلف في المقدمة التي صدره بها ، انه « كتاب اجتماعي علمي بحت ، تجنبت فيه التأويلات والاستنتاجات النظرية ، وسائر فروع الفلسفة ، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً . وقد اسندت حقائقه إلى مصادرها الموثوقة ، واجتهدت الاجتهاد الكلي في الوقوف على احدث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الاجتماعية ، وتمنع من اجراء الاعتباطية عليها » .

لقد طبع الكتاب ، للمرة الاولى ، في بيروت سنة ١٩٣٨ ، وأعيد طبعه في دمشق سنة ١٩٥١ . وقد كتب على غلاف الطبعة الجديدة ، انها « منقحة بقلم المؤلف » .

★

اني كنت طالعت هذا الكتاب ، قبل نحو ثماني سنوات ، مطالعة اعتيادية غير اني اعدت مطالعته أخيراً مطالعة تدقيقية ولم أهمل القيام بمقارنة طبعته الجديدة بطبعته القديمة ، للاطلاع على التطور الذي حصل في آراء الرجل ، خلال الفترة التي مضت بين تأليف الكتاب وبين تنقيحه — أي بين ١٩٣٦ وبين ١٩٤٨ .

اني ادون — فيما يلي — ملاحظاتي على كتاب (نشوء الامم) بعد الدرس الدقيق الذي قمت به في هذه الايام .

★

لقد لاحظت في ابحاث الكتاب بعض النقائص الاساسية ، التي لا تتفق مع «مكتسبات علم الاجتماع» في الحالة الحاضرة . ولاح لي ان المصدر الأصلي لهذه النقائص ، يعود إلى الامور التالية :

(أ) — ان المؤلف لا يقدر التقدير الكافي أهمية البيئة المعنوية والاجتماعية ، ويغالي في تأثير البيئة الطبيعية والجغرافية . ولا ينتبه إلى الفروق التي تميز ما يسمى باسم (المناطق التاريخية) عما يسمى باسم (المناطق الجغرافية) .

(ب) — انه لا يميز تمييزاً صريحاً بين الوراثة الطبيعية والوراثة الاجتماعية ، ولا يلاحظ ان امتياز الانسان على الحيوان — واستمراره في التقدم الفكري والحضاري على الدوام — إنما يستند إلى هــذا النوع الأخير من الوراثة ، إلى ما يسمونه « الوراثة الاجتماعية » .

(ج) — انه لا ينتبه الانتباه اللازم ، إلى الفرق بين الامة والدولة ، وكثيراً ما يخلط بينهما في أبحاثه المختلفة .

ولا حاجة إلى القول : ان هذه النقائص الاساسية ، كثيراً

ما تشوش الابحاث ، وتولد اخطاء كبيرة ، وتؤدي احياناً الى مخالفة اثبت الحقائق الاجتماعية .

اني لن اتوسع هنا في شرح هذه النقائص ، وتعداد هذه الاخطاء كلها ، بل سأحصر بحثي في القضيتين التاليتين :

اولاً : تأثير الطبيعة في سير التاريخ ونشوء الامم .

ثانياً : دور اللغة في حياة الامم ، ونشأة الدول .

وذلك لتعلق هاتين القضيتين بالسياسة التي يدعو اليها المؤلف في تعاليم الحزب الذي اسسه ، تعلقاً شديداً .

تأثير الارض والبيئة الجغرافية في سير التاريخ ونشوء الامم

يغالي المؤلف في امر تأثير البيئة الجغرافية في حياة الامم ، ودور الارض في توجيه الوقائع التاريخية مغالاة شديدة .

إنه يتكلم عن ذلك في فصل خاص ، ثم يعود اليه مرات عديدة ، في فصول مختلفة ، ويتبنى كثيراً من الآراء التي ثبت بطلانها ، بالابحاث العلمية التي حامت حول هذه القضية .

في الواقع ، انه لا يغفل عن ذكر النظرية الصحيحة في هذا المضمار : انه يدرك « ان تأثير الطبيعة يكون كبيراً في الاقوام الابتدائية ،ولكنه يضعف كثيراً في الاقوام المتمدينة » ، ويسجل في مواضع مختلفة من كتابه الحقائق التالية :

« تأثير البيئة ليس قوياً في ظروف الاستقرار الحالي،ولتوفر وسائل التحوط » (ص ٣٧) .

« ان التاريخ غير مكتوب في طبيعة الارض » (ص ٥٣) .

« ان الارض تقدم الممكنات، لا الضروريات والحتميات » (ص ١١٩) .

« ان التاريخ ، غير مكتوب على الاديم . فهو غير حتمي. »

ولكنه يذكر هذه الحقائق ذكراً عابراً — ويمر بهما مروراً سريعاً — دون ان يقدر النتائج المنطقية التي تترتب على التسليم بها. بل يبقى متمسكاً بالآراء والنظريات التي كانت شائعة قبل ان تتوصل الابحاث العلمية إلى إظهار هذه الحقائق الاساسية. كما انه عندما يقدم على تعريف الامة ، ينسى هـــذه الحقائق تماماً ، ويندفع وراء آراء مخالفة لها مخالفة صريحة ، حتى انه في بعض الابحاث ينزلق إلى اودية التناقض ايضاً .

اني اذكر فيما يلي نموذجاً للآراء المتناقضة ، وعـــدة نماذج للاخطاء الاساسية ، المسطورة في الكتاب حول هـــذه القضية .

★

في الفصل المعنون « الارض وجغرافيتها » يتكلم المؤلف عن تأثير العوامل الجغرافية في الاحوال البشرية ، ويستشهد على ذلك بتأثير جبال الألب في سير الحروب البونية الرومانية ، حيث يقول :

« لولا جبال الألب الفاصلة بين بـــلاد الجلالقة (فرنسا) وايطاليا ، لما كان اصاب جيش هاني بعل (هاني بال) ، اعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الامم ، ما اصابه من التشتت والضعف ، حين زحف على رومة . ولولا هذه الجبال نفسها لما وجد اخوه

الباسل ، حسدرو بعل نفسه في ذلك المأزق الحرج الذي انتهى بقتله وتقرير مصير قرطاجنة (ص ٤٢) .

يفهم من هذه العبارات ، ان المؤلف يعلل انتهاء الحروب البونية الثانية بالفشل — بوجود جبال الآلب القائمة بين فرنسا وبين ايطاليا .

إن هذا التعليل كان يمكن ان يعتبر مقبولاً ووجيهاً، لو كان هاني بعل قد عجز عن اجتياز جبال الآلب، فاضطر إلى الوقوف وراءها . ولكنا نعلم ان هذا القائد العظيم نجح في اجتياز تلك الجبال ، وواصل زحفه على روما ، وانتصر على الجيوش الرومانية في اربع معارك كبيرة ، حتى انه وصل امام اسوار روما ، وألقى الرعب في نفوس الرومان .

واما ما حدث بعد ذلك ، فلا يجوز — والحالة هذه — ان يعزى إلى تلك الجبال ، بطبيعة الحال .

هذا : ومن المعلوم ان الجبال المذكورة لم تحل دون استيلاء الرومان على ما وراءها ، لأنهم اجتازوا تلك الجبال ، واستولوا على بلاد الجلالقة ، واستطاعوا ان « يرومنوها » ، ويطبعوها بطابع عميق من اللاتينية .

وبعكس ذلك ، ان البرابرة أيضاً استطاعوا ان يجتازوا جبال الالب ، وان يستولوا على ايطاليا وروما ، ويقضوا على امبراطوريتها القضاء الأخير .

وفضلاً عن ذلك كله ، من المعلوم ان « اسرة سافوا » التي استطاعت ان تحقق وحدة ايطاليا في القرن الماضي ، كانت تحكم

بلاداً تقع على طرفي جبال الالب .

ولهذه الاسباب كلها.. نستطيع ان نجزم بأن تعليل فشل هاني بعل في القضاء على الامبراطورية الرومانية بتأثير جبال الالب .. لا يمكن ان يعتبر تعليلاً معقولاً، بوجه من الوجوه . واما اسباب هذا الفشل ، فيجب ان يبحث عنها ، في احوال قرطاجـة من ناحية ، وتنظيات روما من ناحية اخرى .

*

ومن الغريب ان مؤلف الكتاب نفسه قـد اهتدى إلى هـذه الأسباب الحقيقية ، وذكرها في موضع آخر من كتابه، في فصل « المجتمع وتطوره » .

وقد كتب هناك ما يلي ، بنصه :

« ان المعضلة الأساسية التي كانت تواجهها قرطاجنة ،هي النزاع الشديد الصامت بين الطبقـة القابضة على زمام السلطـة وامبراطور الجيش. والحقيقة ان هذا النزاع كان السببالرئيسي في خسارة الحرب الفينيقية مع رومة .ففي هذه الحرب الطاحنة التي وضع خطتها هاني بعل — أعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الأمم — سلك مجلس قرطاجنة خطة غريبة تجاة هذا القائـد القرطاجي العظيم: فقد اهتم هذا المجلس بارسال المدد إلى الميدان الاسباني ولم يتخذ اي تدبير حـاسم لايصال المدد الضروري للميدان الايطالي . » (ص ١٢١) .

« ان هاني بعل كان يدرك جيداً ان الضربة القاضيةالتي يمكن احدى الدولتين المتنازعتين ان تنزلها بالاخرى يجب ان تكون في

مركزها . ولذلك زحف على رومة، ذلك الزحف الرائع، مجتازاً جبال الالب الشاهقة حتى بلغ اسوار رومة. وقد دب فيها الرعب على اثر معركة كني المخلدة نبوغ البطل السوري، وهلع قلب شعبها لتناقل العبارة — « هاني بعل على الابواب » — ولكن مجلس قرطاجنة بقي غارقاً في دسائسه ضد القائد، ذاهلاً عن المرمى البعيد الذي رمى اليه هاني بعل. » (ص ١٢٢) .

إذن — يقول لنا المؤلف هنا — ان مجلس قرطاجنة كان في نزاع شديد مع الجيش، وانه كان غارقاً في دسائسه ضد القائد العظيم ولذلك قصر في ارسال المدد الضروري للميدان الايطالي كيداً به ويعترف اعترافاً صريحاً بان « هذا النزاع كان السبب الرئيسي في خسارة الحرب الفينيقية الثانية مع رومة » .

هذه الحقيقة التي سجلها المؤلف هنا بنفسه، الا تناقض الرأي الذي كان أبداه عن تأثير جبال الالب في فشل هاني بعل وتقرير مصير قرطاجنة مناقضة صريحة ؟

وهنا، يجدر بنا ان نتساءل : كيف لم ينتبه المؤلف إلى هذا التناقض الواضح الصريح ؟ لماذا لم يدحض نظرية تأثير جبال الألب بهذه الحقائق التاريخية التي سجلها هو بنفسه في فصل آخر من كتابه ؟ كيف سوغ لنفسه ان يعلل الحادثة الواحدة، بعلتين متخالفتين، في فصلين من كتاب واحد ؟

إن السبب في ذلك، على ما أرى هو نزعة المؤلف السياسية : انه بنى نظرياته السياسية على اساس اعتبار البيئة الجغرافية العامل الاصلي في نشوء الامم . ومن البديهي ان تعليل فشل هاني بعل

وسقوط قرطاجنة بتأثير جبال الآلب ، يلائم هـذه النظرية السياسية كل الملاءمة ، ولذلك تمسك بهـذا التعليل ، دون ان يلاحظ انه منقوض ومردود بالحقائق التاريخية التي ذكرها هو بنفسه في فصل آخر من كتابه .

ان هذا التناقض الذي تورط فيه انطون سعادة ، يذكرني مـا كان قاله ابن خلدون عندمـا تكلم عن التشيعات للآراء والمذاهب في مقدمته المشهورة « ان النفس ، إذا كانت في حالة الاعتدال في قبول الخبر ، اعطته حقه من التمحيص والنظر ، حتى تتبين صدقه من كذبه . وإذا خامرها تشيّع لرأي ونحلة ، قبلت ما يوافقها من الاخبار ، لأول وهلة . وكان ذلك الميـل والتشيع غطاء على عين بصيرتهـا عن الانتقاد والتمحيص » .

أفلا يحق لي ان اقول : ان الفكرة السياسية التي رسخت في ذهن سعادة ، كانت بمثابة الغشاوة التي غطت عين بصيرته في هذه القضية ، فحالت دون ادراكه الحقيقة ، على الرغم من وضوحها التام ؟

*

وفي آخر فصل « الارض وجغرافيتها » ، يتكـلم المؤلف عن البيئة وشخصية الجماعة ، ويقول : البيئة اهم عامل في تكوين شخصية الجماعة (ص ٤٤) وان شخصيات الجماعات « مرتبطة بالارض التي تملكها ارتباطاً وثيقاً . بل قوام شخصياتها البيئة — الوطن » (ص ٤٥) ويحاول البرهنة على ذلك بتأثير الاملاك في الاشخاص ، فيقول ما يلي :

« إن تأثير امتلاك ارض او عقار في شخصية الممتلك شديد

جداً . بل ان الارض أو العقار جزء من شخصيته. إذلولاه لكانت طريقة معاشه ومرتبته ونوع حياته على غير ما تكون عليه مع هذا الجزء . وإذا استمر العقار في العائلة ، بحكم الوراثة ، صار جزءاً من شخصية العائلة ، به يثبت مركزها ويحفظ مقامها . ومن هذا نستنتج ان الملك قد يكون اهم ما في شخص المالك، بل اهم منه ، لأن الشخص زائل ، والملك هو الباقي على التوارث . فاذا كان رجل يملك ارضاً زراعية مثلاً تكفيه وعائلته ، كانت شخصيته ورتبته الاجتماعية موقوفتين على ما يملك ، حتى إذا زال من يديه تغيرت شخصيته ورتبته . (٤٤). هكذا مثلاً حدث لأمراء الروس حين جردتهم الثورة الباشفية من املاكهم، فخرجوا إلى العالم سائقي سيارات وخدماً ، بعد ان كانوا أمراء » .

« وهكذا الجماعات : شخصياتها مرتبطة بالارض التي تملكها ارتباطاً وثيقاً » (ص ٤٥) .

وهنا يقع المؤلف في خطأ فاحش جداً ، إذ يعتبر أمر الملكية بمثابة قضية جغرافية ، في حين انها قضية اجتماعية بحتة ، تتبع النظم الاجتماعية ، لا الأحوال الطبيعية .

هذه القطعة من الارض قد تكون ملكاً لشخص أو لشخص آخر ، أو لجماعة من الناس ، أو لاسرة ، قد تكون موقوفة لأمر من الأمور الخيرية ، أو ملكاً مشاعاً لقرية ، وقد تكون مجزأة بين عدة اشخاص ، أو ملكاً لمؤسسة من المؤسسات العامة ، كالبلدية أو الدولة . وقد تنتقل ملكيتها من شخص إلى آخر ، أو من جماعة إلى جماعة ، أو من شخص إلى جماعة ، أو من جماعة إلى شخص

وذلك عن طريق البيع والشراء ، أو التوارث ، أو من جراء تغيير النظم والقوانين المتعلقة بالملكية . بديهي ان كل ذلك ، مما لا يتعلق بالارض نفسها . فمن الخطأ الفادح ان تعتبر قضية الملكية قضية ارض وطبيعة . فان الملكية من الاوصاف الطارئة على الأرض ، من جراء الاعتبارات والتشكيلات الاجتماعية .

هذا ، ومن المعلوم ان الانسان قد يملك ارضاً وعقاراً ، ومع هذا يبقى بعيداً عنها ، وقد يصبح مالكاً للارض أو للعقار ، دون أن يراه بعينه طول حياته .

وفضلاً عن ذلك ، لاحاجة إلى القول بأن النقود والاسهم المالية التي يملكها الاشخاص ، تعمل عملاً مماثلاً لعمل الاراضي والعقارات .

ولهذه الاسباب كلها استطيع ان أقول ، بكل جزم وتأكيد : ان اعتبار الملكية قضية جغرافية ، وتشبيه الاملاك بالبيئة الطبيعية ، والاستدلال من ذلك على ان شخصية الجماعة مرتبطة بالارض التي تملكها ، والقول بأن قوام شخصية الجماعة ، هو البيئة .. يخالف أثبت وأوضح حقائق علم الاجتماع .

ولا أشك في ان المؤلف قد انجرف هنا ايضاً نحو هذه الأخطاء تحت تأثير نزعته السياسية ، التي ترمي إلى اعطاء المكانة الأولى في القومية إلى البيئة الجغرافية .

*

يعزو مؤلف الكتاب إلى الارض أهمية كبرى في أمر « تعريف الامة وتحديدها » أيضاً .

إنه يتبنى قول فون ايرن ، في « ان الارض هي القوم »

(ص١٦٥) ، ويجد قول رينان في « ان الامة تتكون من زواج جماعة من الناس وبقعة ارضية » (ص ١٦١) . ويقول: «ان الامة تجد اساسها قبل كل شيء في وحدة ارضية معينة » (ص١٦٦!).
كما يقول « كل امة تنشأ بعامل ارتباط جماعة من الناس (مهما كانت) ببقعة من الارض » (ص ١٧٠) ويزعم « ان البيئة الجغرافية ضرورية لحياة المجتمع ضرورة الارض للحياة . واي متحد اخذناه وجدناه محدداً بالمساحة او البيئة » (ص ٢٦٣) .

ويقول في آخر الامر : « لا امة على الاطلاق ، بدون قطر معين محدود » (ص ١٦٦) .

اني اجد في مجموع هذه الاقوال والمزاعم مثلاً واضحاً على عدم تمييز المؤلف بين الدولة وبين الامة ، التمييز العلمي الصحيح.

لا شك في ان وجود « قطر معين محدود » ضروري لقيام الدولة ، ولكنه لم يكن ضرورياً لوجود الامة . فالامة قد تكون مبعثرة على اقطار مختلفة ، وقد تعيش مع غيرها من الامم ، في بقعة ارضية واحدة .

فالقول بانه « لا امة على الاطلاق دون قطر معين محدود » ، لا يتفق مع الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه .

يشير المؤلف في هذا الصدد ، إلى ما ذهب اليه (اسرائيل زانفيل) ، عندما قال « ان الشعب اليهودي تمكن من الاحتفاظ بنفسه بدون بلاد » ، ولكنه يعتبر هذا القول من الاغلاط الاجتماعية الفاضحة ، ويحاول البرهنة على صحة زعمه هذا ، بالايضاحات التالية :

« ان اليهود احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني . وقد اكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلتبس بالعصبية القومية إلا على البسطاء المتغرضين . اليهود ليسوا امة اكثر مما هم سلالة . (وهم ليسوا سلالة مطلقاً) . انهم كنيس وثقافة. لا يمكننا ان نسمي اليهود امة ، اكثر مما يمكننا ان نسمي المسلمين امة ، والشيعة امة ، والارثوذكس والكاثوليك امة ... الخ . ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها . » (ص١٦٦).

ولكن مؤلف الكتاب يقع في غلط فاحش جداً، عندما يقيس الديانة اليهودية بالديانة الاسلامية والديانة المسيحية ، انه لا يتنبه الى الفرق العظيم الذي يميز الاديان العالمية عن الاديان القومية ، كما يظهر ذلك بوضوح تام مما كتبه في بحث الدين والامة، حيث قال : « الدين في اصله لا قومي ومناف للقومية » (ص ١٧٤) .

واما الحقيقة في هذا الامر ، فهي غير ذلك تماماً، فان الاديان تنقسم — من الوجهة الاجتماعية — الى نوعين اساسيين : الاديان العالمية التي تدعو جميع الناس الى اعتناقها ، وتفتح ابوابها الى جميع الذين يودون الانتساب اليها ؛ والاديان القومية ، التي تختص بامة واحدة ، فلا تدعو الناس الى اعتناقها ولا تفتح ابوابها لمن كان اجنبياً عنها ، إلا ضمن قيود وشروط كثيرة .

ومن المعلوم ان الديانة اليهودية من النوع الثاني ، لا من النوع الاول .

هذا، واذا تركنا امر اليهود جانباً، وجدنا امثلة وأدلة عديدة اخرى ، تدل على عدم صحة القول بان « لا امة على الاطلاق ،

دون قطر معين محدود » .

فان الارمن ، مثلاً ، مبعثرون في أقطار عديدة ، ومع هذا لا يمكن لاحد ان يزعم بأنهم ليسوا امة .

ثم اننا نجد في بعض الاقطار امماً متشابكة تشابكاً غريباً، وربما كانت بلاد البالقان — ولا سيما القطر المعروف باسم ماكدونيا — من اشهر الامثلة على ذلك: كان يلاحظ في منطقة واحدة ، قرى بلغارية ، مبثوثة بين قرى يونانية ، واخرى البانية . كما يلاحظ في قرية واحدة ، جماعات من البلغار ، مختلطين مع جماعات من اليونان ، والالبان والاتراك .

وكذلك الأمر في بعض المناطق من ترانسيلفانيا حيث يلاحظ تشابك وتداخل بين الرومان والهنغار .

ومن المعلوم ان قضايا الاقليات التي لعبت دوراً هاماً في السياسة الأوروبية ، منذ أوائل هذا القرن ، كلها ناتجة من تشابك الأمم في بعض الأقطار من الارض .

ولذلك كله ، نستطيع ان نؤكد : ان القول بأن « الامة تجد أساسها قبل كل شيء في وحدة أرضية معينة » لا ينطبق على حقائق الامور بوجه من الوجوه .

حول اللغة والقومية

بقدر ما يغالي مؤلف كتاب نشوء الامم في امر تأثير الارض في تكوين الامة ، يغالي كذلك في التقليل من شأن اللغة في هذا المضمار .

ففي حين انه يخصص فصلاً كاملاً لقضيــة الارض ، ثم يعود اليها في صحائف عديدة ، في مواضع متنوعة .. في حين انه يهتم بالارض كل هذا الاهتمام .. فانه يعالج مسألة اللغـة في صفحتين وبضعة أسطر ، فحسب .

هو يذكر ان منتشيني وليوانوف يشتركان في اعتبار اللغــة عنصراً أساسياً في تكوين الامة (ص ١٧١) ومع هذا يزعم ان تحديد الامة باللغة من اكبر الاغلاط (ص ١٧٣) .

وأماالبراهين التي يسردها على رأيه هذا ، فهي في غاية الاقتضاب : يقول أولاً : « إن اللغة وسيلة من وسائل قيام الاجتماع ، لا سبب من أسبابه . إنها أمر حادث بالاجتماع في الاصـل ، لا ان الاجتماع امر حادث باللغة » (ص ١٧١) .

ان هـــذه المسألة تشبه ــ في نظري ــ مسألة « البيضــة والدجاجة » المشهورة . وهي من المسائل العقيمة الــتي لا يمكن ان تنتج حكماً يستحق الوقوف عنده والاعتماد عليه .

ذلك لأن اللغة ــ في حقيقة الامر ــ هي ، من نتائج الحياة الاجتماعية ومن عواملها في وقت واحد : لو لم تكن اللغـة لمــا تميزت الجماعات البشرية عن قطعان الماشية .

وفضلاً عن ذلك ، فان اللغة لم تكن آلة التخاطب فحسب ، بل هي آلة التفكير أيضاً : لو لم تكن اللغة ، لما تقدم العقـــل البشري التقدم الذي يمتاز به عن سائر الحيوانات .

والمؤلف نفسه يعترف بأن اللغة تحمل معها «التراث الادبي والثقافي » ، وهو يصرح بأن « الامة ، من حيث هي متحد اجتماعي

ذو نوع من الحياة خاص به في بيئته ، لا بد لها من لغة واحدة تسهل الحياة الواحدة، وتؤمن انتشار روحية واحدة، تجمع آدابها وفنونها وعواملها النفسية واهدافها ومثلها العليا . » (ص١٨١) .

ومع كل ذلك انه يتحفظ في التسليم بقول بلنتشلي المشهور :
« متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته ، خسر قوميته » .

لأنه يعلق على هذا القول بما يلي :

« لا يصح قول بلنتشلي المشار اليه إلا في الاقوام الغافلة عن نفسها وعن وحدة اجتماعها . اما الاقوام المنتبهة، الحية الوجدان القومي او الاجتماعي ، فيمكنها ان تقبل لغة جديدة ، ولا تفقد خصائصها القومية الاخرى . » (ص ١٧٢) .

انا اجد في هذه العبارات سلسلة محاكمات مغلوطة من اساسها، لأني اعتقد « ان الاقوام المنتبهة الحية الوجدان القومي » حسب تعبير انطون سعادة – تتمسك بلغتها تمسكاً شديداً ، ولا تفرط فيها وتستبدل بها لغة اخرى ابداً .ان تغير اللغة في امة من الامم، لا يمكن ان يحدث ويتم ، إلا عندما تكون الامـــة « غافلة عن نفسها وعن وحدة اجتماعها » ،والا عندما يكون وجدانها القومي متخدراً او نائماً . وكل التاريخ يشهد ، ان اللغة القومية – لغة الامة ، لغة الام والبيت – هي آخر ما يخضع للسيطرة الاجنبية.

ثم اني استغرب كل الاستغراب ، كيف يزعم المؤلف «ان الامة قد تقبل لغة جديدة ، ومع ذلك لا تفقد خصائصها القومية الاخرى » ،بعد ان سلم ان اللغة تحمل معها تراث الامة « الادبي والثقافي » ، وبعد ان قال انها « تجمع آدابها وفنونها وعواملها

النفسية ومثلها العليا » ؟ولا ادري ماذا يبقى للامة من الخصائص القومية ، بعد ان تفقد لغتها ، وتفقد معها — بطبيعة الحال — تراثها الادبي والثقافي ،وعواملها النفسية واهدافها ومثلها العليا؟

★

يحاول المؤلف تأييد رأيه في هــذا المضمار بمثال ايرلندة ، فيقول : « هذه ايرلندة . يعود اليها تنبهها القومي وعصبيتها بعد قرون من سيطرة اللغة الانجليزية . » (ص ١٧٢) .

ولكني — دون ان استرسل في بحث الأسباب والعوامل التي ساعدت على بقاء الايرلنديين متميزين عن حكامهم الانجليز — اسأل هذا السؤال البسيط : هل كانت اللغة الايرلندية اندرست تماماً ، ام بقيت حيةً في حالة لغة عامية ؟

إن جواب هذا السؤال ، لا يترك مجالاً للاختلاف : ان اللغة الايرلندية كانت باقية في حالة لغة عامية ، والحركة القوميــة الايرلندية ، بذلت جهوداً جبارة لجعلها لغــة الأدب والسياسة ايضاً . واللغة الرسمية في دولة ايرلندة الحرة الآن ، هي اللغــة الايرلندية ، لا اللغة الانجليزية ...

هذا ، ويجب ان لا ننسى في هذا المقام ، ان كل الحركات القومية التي غيرت معالم خارطة اوروبا السياسية منذ قرن واحد تغييراً اساسياً ،قامت على اساس اللغات القومية . ان سلسلةطويلة من الانقلابات السياسية القومية ، من اتحاد ايطاليا ،واتحادالمانيا ، إلى اندراس السلطنة العثمانيةوالامبراطورية النمسوية ،وإلى استقلال اليونان ، والبلغار ، والمنغــار ، وقيام رومانيــا ويوغوسلافيا

وتشيكوسلوفاكيا ... كلها كانت من نتائج اتحاد اللغات أو اختلافها ، قبل كل شيء ، واكثر من كل شيء ...[1]

أنا أعرف ان هناك من لا يسلم بهذه الحقيقة، ويحاول تجريحها مستنداً إلى مثال الدول القائمة في طرفي المحيط الاطلسي .

إذ كثيراً ما يقولون : إذا كانت اللغة هي الأساس الاول في بناء القومية فلماذا انفصلت الولايات المتحدة عن انجلترة، وشعوب اميركا اللاتينية عن اسبانيا والبورتغال ؟

لقد أجبت على سؤال من هذا القبيل ، في محاضرة كنت قد القيتها في نادي الوحدة العربية في القاهرة . وأرى ان انقل منها بعض الفقرات ، لتنوير هذه القضية ، وازالة الشكوك من الاذهان [2] :

أولاً : إن انفصال الولايات المتحدة الاميركية عن بريطانيا العظمى تم سنة ١٧٧٦ . ويجب ان نتذكر انه في ذلك العهد ما كان يوجد على وجه الأرض دولة قومية أبداً .

ونستطيع ان نقول : ان ما حدث في أوائل الربع الاخير من القرن الثامن عشر – قبل قيام مبدأ القوميات ، وقبل بدء تكون الدول القومية – لا يمكن ان يتخذ برهاناً على ايـة نظرية من نظريات القوميات .

ثانياً: ان اميركا مفصولة عن الجزر البريطانية بالبحر المحيط

---

١ كتابي « محاضرات في نشوء الفكرة القومية» يشرح هذه الوقائع التاريخية بتفصيلات وافية .

٢ آراء وأحاديث في القومية العربية (ص ٥٣ – ٥٧) .

الاطلسي العظيم .

وهذا الانفصال كان ذا خطورة خاصة قبل قرن ، ولا سيما قبل قرن ونصف قرن. لأن المواصلات كانت تجري عندئذ بالسفن الشراعية. وأسفار هذه السفن كانت تستغرق وقتاً طويلاً ، فضلاً عن انها كانت تتعرض إلى اخطار جسيمة ، بسبب كثرة الزوابع والعواصف التي تحدث خلال مدة السفر الطويلة في ذلك البحر المحيط المكشوف ، وكان من الطبيعي ان يلعب هذا الانفصال الجغرافي دوراً كبيراً في تقرير مصير المستعمرات الاميركية .

ثالثاً : ان اللغة الانجليزية لم تصبح اللغة البيتية عند جماعات كبيره جداً من الاميركيين ، إلا في وقت حديث نسبياً . لأن جميع سكان الولايات المتحدة الاميركية — تقريباً — كانوا من المهاجرين . وهؤلاء المهاجرون كانوا يؤمونها من مختلف الاقطار الاوروبية . وكان بينهم ، فضلا من الانجليز مئـات الآلاف من الالمان ، والايرلنديين ، والطليان ، والسويديين ، والفرنسيين . وكان هؤلاء يحملون معهم إلى القارة الاميريكية لغاتهم الاصلية. وما كانوا ينسون تلك اللغات — ويصبحون انجليزيـي اللغـة في بيوتهم — إلا بعد مرور جيلين او ثلاثة على هجرتهم من بلادهم.

ولذلك كله ، كان من الطبيعي ان لا تعمل اللغة الانجليزية في الولايات الاميريكية ، عملا يشبه عمل اللغة الالمانية او الايطالية في القارة الاوروبية .

ان ما قلته عندئذ عن الولايات المتحدة الاميركية ، ينطبق تمام الانطباق على امريكا اللاتينية ايضاً .

بناء على كل ما تقدم ، استطيع ان اؤكد بأن أنطون سعاد يخالف حقائق التاريخ والاجتماع ، عندما يعظم شأن الارض والبيئة الطبيعية في تكوين الامة ، ويقلل من شأن اللغة في هذا التكوين .

ولعل هذا الغلط يظهر بوضوح أعظم في احد المزاعم التي سطرها في الفصل الاخير من كتابه :

يقول المؤلف — بصيغة التأكيد ان « الذي ينتقل من قطره إلى قطر آخر ، يدرك انه قد اصبح في متحد جديد ، سواء أكان يعرف ما هي لغة اهله أم لا يعرف ، سواء أكان يجهل أخلاقهم أم لا يجهل . » (ص ١٥٤ — ١٥٥) .

أنا لا ادري ماذا يقصد انطون سعادة بالضبط ، من تعبير «قطره» ؟ هل يقصد من ذلك اراضي الدولة التي ينتسب اليها ، أم يقصد أراضي الامة التي ينتمي اليها ؟ ولكني أجزم ، في كلتا الحالتين ، ان زعمه هذا يخالف الحقائق الراهنة مخالفة كلية :

فأن المرء ، إذا انتقل من أراضي دولته إلى أراضي دولة اخرى ، لا يدرك انه أصبح خارج بلاده ، إلا إذا عرف ذلك قبلاً ، أو إذا شاهد معالم الدولة الاخرى ، من علامات حدود ، وأعلام ، وموظفي أمن وجمارك ..

وإذا انتقل من أراضي أمته إلى أراضي أمة أخرى ، لا يدرك هذا الانتقال ، إلا اذا عرف ذلك قبلاً ، أو سمع لغة الناس .

وعلى كل حال ، فان القول بأن انتقال المرء من قطر إلى آخر يعلمه بأنه أصبح في قطر جديد .. لا يتفق مع حقائق الامور واختبارات الحياة ، بوجه من الوجوه .

وأحسب ان الامثلة الكثيرة التي ذكرتها وشرحتها آنفاً تكفي للبرهنة على ان كتاب « نشوء الامم » بعيد عن ان يكون كتاباً علمياً إجتماعياً بحتاً ، كما انه بعيد جداً عن ان يعكس « أحدث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الاجتماعية ، وتمنع من اجراء الاحكام الاعتباطية عليها » كما زعم المؤلف في المقدمة التي صدر بها الكتاب .

ومع هذا ، قبل أن اختم هذا البحث ، الانتقادي ، أود أن أقول كلمة حول عبارتين من العبارات التي قرأتها في آخر الكتاب :

يقول المؤلف « ان الوطن وبريته حيث فتح المرء عينيه للنور وورث مزاج الطبيعة وتعلقت حياته بأسبابها هما أقوى عناصر هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية التي هي القومية . » (ص ١٨١) .

ولكن تعريف الوطن وبريته بالمحل الذي يفتح المرء عينيه إلى النور ، تعريف عامي ، بعيد عن الانطباق على المعنى المفهوم من « الوطن » في العصر الحاضر . الوطن ، لا يعني مسقط الرأس ، وهو أوسع بكثير من البقعة الارضية التي يفتح المرء فيها عينيه إلى النور ، انه يشمل كثيراً من التي لا تقع على جميعها أعين معظم المواطنين ، طوال حياتهم ...

ثم يقول المؤلف : « القومية ، هي الروحية الواحدة ، او الشعور الواحد المنبثق من الامة ، من وحدة الحياة في مجرى الزمان » .

ولكن .. اللغة ألم تكن أهم وسيلة وأهم ظاهرة في وحدة الحياة ؟ ومجرى الزمان ، هل يتجلى في شيء غير التاريخ ؟ أفلا يعني ذلك أن أهم عناصر القومية هي : اللغة والتاريخ ؟ [1] .

---

١ راجع فصل «عوامل القومية» في كتابي «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية»

حول الآراء العلمية

●

نظرات في الخطب والمقالات

بعد الانتهاء من نقـــد « نشوء الأمم » ، يجدر بي أن القي نظرة عجلى على الآراء العلمية المسرودة في سائر مقالات انطون سعادة ، وخطبه أيضاً .

إن انتقاداتي للكتاب المذكور ، أظهرت ان الآراء المسرودة فيه كانت بعيدة عن «الدقة العلمية» . فيجب ان لا نستغرب - والحالة هذه - إذا ظهر لنا المؤلف في بعض الاقسام من كتاباته الأخرى اكثر تباعداً عن مناحي البحث العلمي والدقة العلمية .

إني سأذكر فيما يلي بعض الأمثلة على هذا التباعد :

★

في احدى المحاضرات التي القاها انطون سعادة بغيـة شرح تعاليم حزبه ، قال ما نصه :

« امبراطورية الهيكسوس ، هي دولة سورية ، شيدت الاهرام وأنشأت ابا الهول ، فهي آثار الدولة السورية والسلطان السوري في مصر . » (تعاليم وشروح — ص ١١٢) .

في حين ان مراجعة أي كتاب من كتب «تاريخ مصر» تكفي

للتأكد من ان الاهرامات شيدت في عهد الاسرة الرابعة . والمدة التي مضت بين حكم اسرة بناة الاهرام وبين دخول الهيكسوس مصر ، كانت مدة طويلة ، توالت خلالها على حكم مصر ، سبع اسر مالكة. فالقول بأن الأهرامات وأبا الهول من آثار الهيكسوس هو قــول ينم عن « خلط تاريخي » **Anachronisme** فادح ، يخالف أثبت وأوضح حقائق التاريخ مخالفة صريحة .

★

وقال انطون سعادة في احدى مقالاته ، ما نصه :

« ان الفتح الحربي وتغيير لغة قوم ودينهم بواسطة الفتح، لا يلغيان وجود الامة المغلوبة . فقد افتتح النرمان انكلترة وسيطروا عليها ، وغيروا لغتها الجرمانية وصيروها لاتينية وبقيت الامـة الانكليزية .» (الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث ص١٨).

إن زعم سعادة بأن اللغة الانجليزية أصبحت لاتينية ، هو من المزاعم الاعتباطية التي لا يستطيع ان يقره عليها أحد، واما قوله : « وبقيت الأمة الانجليزية » فيخالف الواقع التاريخي مخالفة تامة.

فان ما نسميه الآن باسم « الامة الانجليزية» ما كانت موجودة عندئذ ، انها تكونت بعد ذلك ، نتيجة لسلسلة طويلــة من التطورات التاريخية .

يــذهب سعادة إلى زعم مماثل لهــذا الزعم في امر فرنسا واسبانيا ، وايطاليا ورومانيا أيضاً فيقول :

«لتّن الفتح الروماني العالم اللاتيني لغة وديناً ، ولكنه لم يستطع تلتينه قومياً وجعله أمة واحدة. لانه لم يستطع توحيد البيئة والمجتمع.

فبقيت اسبانيا في طبيعتها وواقعهـــا الاجتماعي ، وبقيت كذلك فرنسا وايطاليا ورومانيا . » (ص ١٨) .

انا لا ادري ما هو الواقع الاجتماعي الذي استمر — وبقي — في اسبانيا ، منذ الفتح الروماني ؟ واما الذي اعرفه جيداً فهو : ان اسبانيا الحالية تختلف عما كانت عليه قبل الفتـــح الروماني اختلافاً كلياً ، وكذلك عما كانت عليـــه في عهود الرومان ، والقوط والاسلام . إن ما نسميه الآن باسم « الامـة الاسبانية » ما كانت موجودة قبل الفتح الروماني الذي يشير اليـه صاحب المقال . إنها ، تكونت — وتولدت — بعد ذلك ، نتيجة تطورات سياسية واجتماعية كثيرة وعميقة ومعقدة .

إن ما قلته الآن عن اسبانيا ، ينطبق على فرنسا ايضـاً ، إذ من الامور الثابتة تاريخياً ، ان جنوب فرنسا الحالية مثلاً ، ظل مختلفاً عن شمالها اختلافاً كبيراً ، من جميـــع الوجوه السياسية والاجتماعية مدة طويلة من الزمن . وفرنسا لم تصبـــح وحـــدة جغرافية إلا بعد تطورات سياسية واجتماعية استمرت قرونـــاً عديدة . فالقول بأن فرنسا بقيت كما هي بعد الفتح الروماني ، لا يتفق مع حقائق التاريخ أبداً .

وكذلك الامر في رومانيا وفي سائر البلاد اللاتينية .

اني اعتقد ان هذه الاقوال والمزاعم ، كلها بعيدة عن الدقة العلمية ومخالفة للحقائق التاريخية ، إنما قيلت لدعم فكرة سياسية ، بصورة اعتباطية .

*

ان امثال هذه المزاعم الاعتباطية كثيرة في كتابات انطون سعادة. إنها جرته غير مرة ، إلى نقض نفسه بنفسه أيضاً .

وها اني اذكر فيما يلي ، مثالاً بارزاً على التناقض الصريح:

إنه يشير – في احدى المحاضرات التي القاها لشرح تعاليم حزبه – الى « الفرق » الذي يظهر في التاريخ « بين كيفية فتح السوريين الكنعانيين – اي الفينيقيين – لافريكة واستعمالهم لها ، وكيفية فتح العرب واستعمالهم لها » .

« الكنعانيون (الفينيقيون) استعمروا الشاطيء الافريكي ، ولكنهم لم يساووا في الحقوق بينهم وبين شعوب شمال افريكة الذين اخضعوهم ، وكانوا من سلالة أحط من سلالتهم. فاحتفظ السوريون الكنعانيون بسلامة فطرتهم ، وبقيت لهم النفسية المتوارثة الموجودة في طريقة عنصرهم دون اي تعديل ، واحتفظوا بسيادتهم على الافريكيين ، وبقوتهم ، ولذلك أمكن ان ينشئوا امبراطورية عظيمة ، كادت ان تسحق رومة . ولم تسقط تلك الامبراطورية السورية الغربية – امبراطورية قرطاجنة – إلا في حرب مع الرومان الذين هم قوم من سلالة نظير السلالة المتفوقة التي ينتمي اليها السوريون الكنعانيون .

« أما العرب ، فعلى عكس السوريين ، فانهم اختلطوا باقوام من سلالات الزنوج فدخل في المزيج العربي عرق من سلالات منحطة ، ولولا ان العدنانيين منهم ، الذين هم من الارومة الكنعانية ، حافظوا – بعامل البداوة – على مجموع عرقي جيد الفطرة ، لما امكن العرب القيام بنهضة الفتح المحمدي . وقد

أجاز العرب، بعامل الشرع الديني الامتزاج الدموي الواسع بلا فرق بين سلالات راقية وسلالات منحطة. فلما افتتحوا شمال افريكة الذي كان افتتحه السوريون قبلهم، أجازوا الاختلاط الدموي اللامحدود مع الاقوام الافريكية، فلم يمكن ان ينشأ من المزيج الذي تولد من اختلاط العرب والبربر وغيرهم من اهل المغرب أية نهضة يمكن ان تحدث تمدناً أو عظمة سياسية او فنية من اي وجه او شكل .. لم يمكن ان تنشأ من الفتح العربي قرطاجنة ثانية على الشاطىء الافريكي. لان امتزاج العرب، ومن سار معهم من الافريكيين على أساس المساواة المدنية، بعامل المبدأ الديني المحمدي المساوي مساواة مدنية كلية بين المؤمنين، افقد العرب من حيويتهم واضاف إلى حيوية الافريكيين شيئاً، ولكن بين رفع الادنى وانزال الاعلى، حصل متوسط اقرب إلى الانحطاط منه إلى الارتقاء» . (تعاليم وشروح ص ١٠٩ – ١١٠) .

أنا لا اود هنا، ان انتقد هذه الآراء، وأتحرى مبلغ موافقتها للحقائق الراهنة، ولا ان اناقش – بوجه خاص – القول القائل بان «العرب لم يوجدوا في الساحل الافريكي تمدناً وعظمة سياسية او فنية من اي وجه وشكل» . إنما أود ان اسجل الآراء المسطورة هنا، واقارنها مع ما جاء عنها في كتاب نشوء الامم :

في هذه المحاضرة، تكلم انطون سعادة عن السلالات الراقية والسلالات المنحطة، وجزم بأن الاختلاط مع السلالات المنحطة بوجه عام – ومع الزنوج بوجه خاص – يؤدي إلى انحطاط السلالة ويحول دون قيام نهضة حقيقية، وتقدم هام .

في حين انه – في كتاب نشوء الامم، ادعى عكس ذلك تماماً: لقد فند هناك نظرية «تفاضل السلالات» تفنيداً قوياً، ودحض دعايات نقاوة السلالة صراحة.

وها اني انقل فيما يلي، ما كتبه هناك حول الموضوع:

« يجب ان لا يستنتج من المميزات النفسية او العقلية، ان هنالك مواهب عقلية سلالية خاصة مكتسبة من الشكل السلالي، ومقتصرة مع السلالة ومتوارثة فيها. لان الواقع قد برهن على غير ذلك، فحيث امتزجت السلالات قديماً، كانت المدنيـــة ارقى. وان اسبرطه كانت تمنع الاختلاط مع الاجانب محافظة على نقاوة دمها، ولكنها كانت في المدنية دون أثينا، التي كثر فيها الاختـــلاط الدموي بمراحل. وان ارسطوطاليس كان يعد الماكدونيـــين المحافظين برابرة. والاسكندر نفسه كان يرى انه يمكن ان يحسب الهلينيون انصاف آلهة، بالنسبة إلى رجاله المكدونيين.

« وان الادلة على عدم صحة القول بتفوق احدى السلالات الراقية في المواهب العقلية على الاخرى لمتوفرة. فاذا أخذنا الوجهة الفردية، ودرسنا تسلسل بعض النوابغ، وجدنا ان لا عبرة بنقاوة السلالة. فالشاعر الكبير اسكندر بوشكين، المبـــدع في الادب الروسي القومي، كان ذا عرق زنجي، فقد كان لبطرس الاكبر قائد زنجي، رفعته درجة ذكائه إلى مرتبة مهندس المدفعية العام، وصيرته ذا املاك واسعة وتزوج سيدة روسية من الاشراف. وحفيد هذا الزنجي هو بوشكين، أعظم شعراء روسيا. والكاتبان الفرنسيان الشهيران دوماس الاب والابن كانا ذا عرق زنجي.

« إن نظرية ضرورة نقاوة السلالة شرطاً للارتقاء العقلي وانشاء المدنيات واطراد التقدم قد اصبحت واهية جداً ، اذا لم نقل فاسدة بالمرة ، تجاه المعلومات العلمية الحديثة ، خصوصاً ما تعلق منها بالمدنيات الاولى . فمدنية بابل التي يعدها العلماء او جمهورهم أولى المدنيات التي أثرت على سير التمدن العام نحو الارتقاء ، لم تكن عمل سلالة واحدة او قوم اصفياء ، كما كان الظن القديم ، بل نتيجة احتكاك واختلاط الشمريين بالساميين » (نشوء الامم ص ٣٦ — ٣٧) .

يلاحظ ان الآراء المسرودة هنا ، تناقض المزاعم المسطورة في المحاضرة التي ذكرتها آنفاً ، مناقضة تامة . في المحاضرة ، تبنى الرجل نظرية تفاضل السلالات ، وقال بضرورة نقاوة السلالة لتقدم الحضارة ، في حين انه — في الكتاب — كان قرر ان هذه النظرية « واهية جداً » .

كيف ولماذا انجرف انطون سعادة إلى مثل هذا التناقض الكبير ؟

يلوح لي ان السبب في ذلك ، هو : تغلب نزعته السياسية على نزعته العلمية .

في الكتاب ، قد سجل حكم العلم الحديث في هذه النظرية ، دون ان يهدف — من وراء ذلك — إلى غاية سياسية . واما في المحاضرة ، فانه كان يسير وراء هدف سياسي ، فتحيز إلى النظرية التي تساعد على بلوغ الهدف المذكور ، دون ان يتذكر ، بأنه كان فندها تفنيداً علمياً ، وقال عنها : انها واهية جداً ..

نقد الآراء السياسية

*

قبل الشروع في ابداء ملاحظاتي على آراء وتعاليم انطون سعادة السياسية ، أرى أن استعرض هذه الآراء ، استعراضاً مجرداً عن كل تعليق ، لمساعدة القارىء على تكوين فكرة صحيحة عن المبادىء التي قام عليها «الحزب السوري القومي» ، الذي سمي مؤخراً باسم « الحزب القومي الاجتماعي » .

ولذلك أدرج فيما يلي مبادىء الحزب الاساسية ، ومبادئه الاصلاحية ، مع غاية الحزب وخطته ، وذلك نقلاً عن الحلقة الثامنة من « سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية » .

هذه الحلقة معنونة بعنوان «تعاليم وشروح في العقيدة القومية الاجتماعية » . وهي مطبوعة في دمشق ، بتاريخ تموز ١٩٥٠ :

المبادىء الاساسية للحزب السوري القومي الاجتماعي

المبدأ الاول :

سورية للسوريين ، والسوريون أمة تامة .

المبدأ الثاني :

القضية السورية ، هي قضية قومية قائمة بنفسها ، ومستقلة

كل الاستقلال عن اية قضية اخرى .

المبدأ الثالث :

القضية السورية هي قضية الامة السورية والوطن السوري ؛

المبدأ الرابع :

الامة السورية ، هي وحدة الشعب السوري ، المتولدة من تاريخ طويل ، يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي .

المبدأ الخامس :

الوطن السوري ، هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامة السورية . وهي ذات حدود جغرافية ، تميزها عن سواها ، تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي الى قناة السويس والبحر الاحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة . ومن البحر السوري في الغرب ، شاملة جزيرة قبرص ، الى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق ، ويعبر عنها بلفظ عام : الهلال السوري الخصيب ، ونجمته جزيرة قبرص .

المبدأ السادس :

الامة السورية مجتمع واحد .

المبدأ السابع :

تستمد النهضة السورية القومية الاجتماعية روحها من مواهب الامة السورية وتاريخها الثقافي السياسي القومي .

المبدأ الثامن :

مصلحة سوريا فوق كل مصلحة .

يلاحظ ان اهم هذه المبادىء الاساسية الثمانية ـ بالنسبة إلى موضوع ابحاثنا ـ هو المبدأ الاول والمبدأ الخامس :

لأن المبدأ الاول ، يقول « السوريون امة تامة » ويعني بذلك انهم ليسوا جزءاً من الامة العربية .

والمبدأ الخامس يحدد سوريا تحديداً يختلف عما هو معروف ومألوف اختلافاً كلياً .

المبادىء الاصلاحية

المبدأ الاول :

فصل الدين عن الدولة .

المبدأ الثاني :

منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين .

المبدأ الثالث :

ازالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب .

المبدأ الرابع :

الغاء الاقطاع ، وتنظيم الاقتصاد القومي على اساس الإنتاج ، وانصاف العمال وصيانة مصلحة الامة والدولة .

المبدأ الخامس :

اعداد جيش قوي ، يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الامة والوطن .

غاية الحزب وخطته

غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي : «بعث نهضة سورية

قومية اجماعية ، تكفل تحقيق مبادئه ، وتعيد الى الامة السورية حيويتها وقوتها . وتنظم حركة تؤدي إلى استقلال الامة السورية استقلالاً تاماً ، وتثبيت سيادتها ، وإقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها ، والسعي لانشاء جبهة عربية .

هذه هي المبادىء الاساسية والمبادىء الاصلاحية ، والغاية والخطة المقررة للحزب السوري القومي الاجتماعي .

ان جميع هذه المبادىء والخطط مقرونة — في النشرة التي ذكرتها آنفاً — بشروح وافية .

ومع هذا ، رأى مؤسس الحزب — ان يتوسع في هذه الشروح ولذلك القى خمس محاضرات في الندوة الثقافية للحزب ، خلال شهري كانون الثاني وشباط من سنة ١٩٤٨ .

ومن المفيد ان ننقل من هذه الشروح ، بعض الاقسام المتعلقة بالعالم العربي من ناحية ، وبلبنان من ناحية اخرى ، لاعطاء فكرة أتم عن موقف انطون سعادة من القضية العربية .

حول الجبهة العربية

يشرح انطون سعادة رأيه في أمر انشاء « الجبهة العربية » المنصوص عليها في « غاية الحزب وخطته » بالتفاصيل التالية :

« إن ايجاد جبهة من امم العالم العربي ، تكون سداً منيعاً ضد المطامع الاجنبية ، وقوة يكون لها وزن كبير في اقرار المسائل السياسية الكبرى ، هو جزء متمم لغاية الحزب السياسية : من

الوجهة الخارجية .

« إن سورية هي احدى امم العالم العربي وانها هي الامة المؤهلة لقيادة العالم العربي ، وما النهضة القومية الاجتماعية الا البرهان القاطع على هذه الاهلية .

« من البديهي ان الامة التي لا عصبية لها تكفل القيام بنهضتها هي نفسها ، ليست بالامة التي ينتظر منها ان تنهض بالامم الاخرى وتقودها في مراقي الفلاح .

« ان القومية السورية ، هي الطريقة العملية الوحيدة ، والشرط الاول لنهضة الامة السورية وتمكينها من الاشتغال في القضية العربية .

« ان الذين يعتقدون ان الحزب القومي الاجتماعي يقول بتخلي سورية عن القضية العربية – لانهم لا يفهمون الفرق بين النهضة السورية القومية الاجتماعية والقضية العربية – ضلوا ضلالاً بعيداً .

« اننا لن نتنازل عن مركزنا في العالم العربي ، ولا عن رسالتنا الى العالم العربي . ولكننا نريد ، قبل كل شيء ان نكون أقوياء في أنفسنا لنتمكن من تأدية رسالتنا . يجب على سورية ان تكون قوية بنهضتها القومية الاجتماعية لتستطيع القيام بمهمتها الكبرى .

« ان الفكرة الشاملة التي أوجدها الحزب السوري القومي الاجتماعي تكوّن قضية مثالية في الحياة القومية . وليس يريد الحزب حصر الفكرة السامية وحصر نتائجها الخطيرة في سورية ، بل هو يريد حملها الى الامم العربية الشقيقة ، عن طريق العمل الثقافي وتبادل الآراء والتفاهم ، لا عن طريق الغاء شخصيات الامم العربية وفرض النظريات عليها فرضاً . (تعاليم وشروح ص ٤٨

— ٤٩) .

حول المسألة اللبنانية

يشرح انطون سعادة موقفه من المسألة اللبنانية — خلال بحثه عن غاية الحزب — على الوجه التالي :

« أما الوجهة السياسية من غاية الحزب ، فمن الناحية الداخلية ، يعتبر الحزب ان المسألة اللبنانية نشأت لمبررات جزئية ، كانت صحيحة حين كانت فكرة الدولة دينية . ولكن مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي قد أوجدت الاساس الاجتماعي الحقوقي القومي . وبتحقيق مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي تزول المبررات التي أوجدت انعزال لبنان » (تعاليم وشروح — ص ٥٠) .

ثم يوسع هذا البحث في مقالة خاصة ، حيث يقول ما يلي :

« لا جدال في ان السبب الموجب من الوجهة الداخلية ، لوجود الدولة اللبنانية ، هو المنازعات والحروب والمذابح الدينية التي حدثت بسبب الحزبيات الدينية ونفسية صراع الاديان ، وكان يكفي المسيحيين أن يطلبوا الاستقلال الاداري او كياناً سياسياً يقيهم شر الفتن الدينية من غير لجوء الى الانفصال النفسي الثقافي القومي . والواقع انه لم يخطر قط في بال أحد من قدماء السياسيين في لبنان ، حتى ولا في بال المؤسس الفعلي الاول والاكبر للانفصال اللبناني ، السيد شكري غانم . الذي عاش مدة طويلة في فرنسا واكتسب الجنسيه الفرنسية على ما هو معلوم وشائع وتنقل في عمله السياسي في فرنسا بين جمعية سورية طوراً وجمعية لبنانية تارة

أن يكون الانفصال اللبناني انفصالاً قومياً ، فقد استمر غسا يشعر بسوريته حتى بعد اعلان «لبنان الكبير» من قبل قائد جيش الاحتلال الفرنسي ، الجنرال غورو . ونشر من الكتابات ما يثبت بقاءه سورياً وحسبانه لبنان جزءاً مستقلاً من أجزاء سورية الطبيعية . (اقرأ مقدمته لكتاب الدكتور جورج سمنه ، «سوريا» المطبوع في باريس سنة ١٩٢١) ولكن المدارس الفرنسية وسياسة الاحتلال الفرنسي نحو ربع قرن أنشأت لنا طائفة من الشبان المتنكرين لسوريتهم ...

« ... اذا كان هنالك سبب موجب للاستقلال الاداري والسياسي ، فليس هنالك ما يوجب الانفصال عن القومية السورية التي هي نتيجة الواقع الطبيعي والاجتماعي السوري ، والتي ينادي بها اللبنانيون المستقلون عن الارادات الاجنبية . » (الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث ص ١٣ – ١٥) .

هذا ، وقال انطون سعادة ، رداً على اسئلة أحد الصحفيين ما يلي :

« إننا نحترم الكيان اللبناني ... كياناً سياسياً بررت وجوده جزئياً ، اعتبارات دينية وسياسية ، ولكننا نعتقد ان اللبنانيين هم سوريون قومياً ، مندمجون في اصل الامة السورية ومزاجها وحياتها وتاريخها وثقافتها وبيئتها ودورتها الاجتماعية والاقتصادية» (الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة الابحاث ص ٩١) .

هذا ، وأرى من المفيد ان انقل فيما يلي بعض الفقرات ، من خطبة القاها انطون سعادة – في حفلة اول مارس سنة ١٩٤٠ رداً على السوريين واللبنانيين الذين يناوئون حزبه :

مما قاله عن السوريين :

« إن هؤلاء السوريين المنادين « العروبة ! العروبة ! » لم يفعلوا شيئاً ، لا في سبيل امتهم ولا في سبيل العالم العربي . انهم يدعون باطلاً ان الحزب السوري القومي الاجتماعي عدو العرب والعروبة . هم اعداء العرب والعروبة الحقيقيون ، بما يثيرونه ضد نهضة الامة السورية التي هي في مقدمة امم العالم العربي .

اننا نحن السوريين القوميين الاجتماعيين نوجه كل قوانا فيما يختص بالمسائل القومية الى اهداف امتنا نحن . امـا فيما يختص بالمسائل المتعلقة بالعالم العربي كله تجاه غيره من العوالم، فنحن هم العرب قبل غيرنا . نحن جبهة العالم العربي وصدره ، وسيفه ، وترسه، ونحن حماة الضاد ومصدر الاشعاع الفكري في العالم العربي كله.» (الحلقة السابعة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية ص٧٩).

ومما قاله عن اللبنانيين :

« إن هؤلاء الانفصاليين الذين ينادون بملء أشداقهم «لبنان! لبنان !» هم اعداء لبنان واللبنانيين. فهم يرمون الى فصل لبنان عن الوطن الكامل، المتلاحم الاجزاء ، وعزله عن العالم، ليكون فريسة هينة لغول الاستعمار الأجنبي. اذا كانت المسألة، مسألة قتل الشعب اللبناني من اجل فصل لبنان عن الوحدة الجغرافية للوطن السوري، فهم ابطال هذه المجزرة. ولذلك أعلنهم اعداء لبنان واللبنانيين هم الذين يريدون امحاء الشعب اللبناني من الوجود . اما متى كانت المسألة مسألة الشعب في لبنان وحياتـه ، فنحن هـم اللبنانيون الحقيقيون ، ولا لبنانيين غيرنا ... » (الحلقة السابعة ص ٨٠).

مسألة حدود سوريا

●

يتبين من تعاليم انطون سعادة وشروحها ، ان اس الأساس الذي قام عليه حزبه ، هو الدعوة الى التمسك بالقومية السورية، واعتبار هذه القومية مستقلة عن القومية العربية تمام الاستقلال ، مع ادخال العراق في حدود سورية الطبيعية ، واعتبار العراقيين سوريين .

لا مجال للشك في ان هذه النظرة الغريبة الى مفهوم تعبير « سوريا الطبيعية » نشأت عن ظروف تفكير انطون سعادة الخاصة ونزعاته السياسية .

كل شيء يدل على ان مبادىء الحزب السوري القومي ، كانت تبلورت في ذهن انطون سعادة ، عندما كان في المهجر ، او عقب عودته الى أرض الوطن ، وذلك في الوقت الذي ما كان يعرف عن البلاد العربية شيئاً يذكر ، غير احوال سوريا ولبنان .

ولهذا السبب اسس حزبه على اساس محاربة الانعزالية والطائفية في سوريا ولبنان ، والدعوة الى توحيد هذين القطرين .

ولكنه ، عندما لاحظ الامور عن قرب ، وأمعن النظر في

حقائق الاحوال ، أدرك الوشائج المتينة التي تربـط السوريين بالعراقيين ، وفهم انه لا مجال منطقياً لفصل سوريا عن العراق ، من الوجهة القومية. وراح يزعم ان العراق جزء من سوريا الطبيعية. وأخذ يطبق مبادىء حزبه على العراق ، دون ان يغير اسمه .

في الواقع ان انطون سعادة نفسه ينكر وقوع هـذا التطور . لأنه ، عندما وجه اليه أحد الصحفيين سؤالاً في هذا الموضوع ، صرح بأنه كان بهذا الرأي ، منذ بداية الأمر .

إلا اني وجدت في طبعتي كتاب نشوء الامم ، دلائل قاطعة على ان انطون سعادة لم يكن مخلصاً في تصريحه هذا ، بل كان يحاول خداع مخاطبيه ، وربما كان يخادع نفسه ايضاً .

لأني ، عندما قارنت بين الطبعة الاولى ، وبين الطبعة الثانية المنقحة ، مقارنة دقيقة ، علمت ان التنقيحات كانت طفيفة ، لا تخرج عن نطاق تبديل بعض الكلمات وبعض العبارات . إلا ان جميع هذه الكلمات والعبارات المنقحـة كانت ذات اهميـة خاصة ، تدل على حدوث تطور هام في تفكـير المؤلف عن حدود سوريا ، ومفهوم القومية السورية .

فان ما سماه المؤلف في الطبعة الاولى «البقاع السامية» ، تحول إلى «البقاع السورية» ، وما سماه عند التأليف «الدولة العباسية» ، تحول عند التنقيح إلى «الدولة السورية العباسية» . كما ان اكد وكلده وبابل.. التي كانت تذكر في الطبعة الأولى منفصلة عن سوريا ومعطوفة عليها ، صارت في الطبعة الثانية جزءاً من سوريا ، والعراق الذي كان يذكر في الطبعة الاولى منفصلاً عن سوريا عـلى الدوام ،

ومخاصماً او منافساً لها في بعض الاحيان ، صار يعتبر في الطبعة الثانية من أجزاء سوريا الطبيعية ، ويسمى لذلك باسم « سوريا الشرقية » .

ولازالة الشكوك التي قد تساور بعض الاذهان في هذا المضمار ، رأيت ان أدرج فيما يلي بعض النصوص الواردة في الطبعتين ، عن طريق المقارنة والمقابلة :

الطبعة الاولى	الطبعة الثانية
ابتدأ العصر المعدني بين **الشعوب السامية** وفي مصر (ص ٧٨)	ابتدأ العصر المعدني في **سوريا** وفي مصر . (ص ٧٨)
في هذا العصر وفي هذه **البقاع السامية** دخل المحراث (ص ٧٩)	في هذا العصر وفي هذه **البقاع السورية** دخل المحراث. (ص ٧٩)
يبتدىء عصر الدولة التاريخية في الأقوام الثقافية الخارجة عن العصر الحجري إلى العصر المعدني، وهي **الاقوام السامية والحامية في بابل وارض كنعان** ومصر . (ص ١٠٥)	يبتدىء عصر الدولة التاريخية في الأقوام الثقافية الخارجة عن العصر الحجري إلى العصر المعدني، وهي **الاقوام السامية في سورية (بابل وارض كنعان)** **والحامية في مصر** . (ص ١٠٥)
الشريعة الكنعانية ... لم تكن تقل عن شريعة حمورابي وهي تدل على الارتقاء السياسي العالي في جنوب سورية . (ص ١١٥)	الشريعة الكنعانية .. تدل على الارتقاء السياسي العالي في جنوب سورية كما دلت الشريعة الحمورابية على الارتقاء السياسي العالي في شرق شمالي سورية (ص ١١٥)

الطبعة الاولى	الطبعة الثانية
وهو ما لم تدرك الدولة العباسية اهميته . (ص ١٣٤)	وهو ما لم تدرك الدولة السورية العباسية أهميته. (ص ١٣٤)
خذ القرايا المزرورة في سورية في التاريخ القديم. نجد انها أصبحت كتلاً مغناطيسية قوية كدمشق وحمص وحلب وبيروت والقدس . (ص ١٦٥)	خذ القرايا المزرورة في سورية في التاريخ القديم، تجد انها أصبحت كتلاً مغناطيسية قويــة كدمشق وبغداد (بابل) واورفة (أديسه) وحمص وحلب وبيروت والقدس . (ص ١٦٥)
وأما من الأقسام الجديبة من بــلاد الكلدان وشوشان وسيستان وآسيا الوسطى . (ص ٤٣)	واما في الأوساط الجديبة من شرق سورية (بلاد الكلدان وشوشان) (وسيتان) وآسيا الوسطى .
الدولة التاريخية الناشئة في بابل وآشور وسورية ومصر . (ص ١٠٦)	الدولة التاريخية الناشئة في سورية (بابل وآشور) وفي مصر . (ص ١٠٦)
ولكنا نجد فرقاً ظاهراً في تفرّد النظــامين : الشنعاري والمصري . (ص ١٠٩)	ولكنا نجد فرقاً ظاهراً في تفرد النظامــين : السوري (الشنعاري) والمصري . (ص ١٠٩)

الطبعة الاولى

كانت دولة حمورابي تمتاز على الدولة المصرية.
(ص ١١١)

(الدولة) جبلت الساميين والشمريين في باب الله (بابل) ، وهي جبلت الشماليين بالجنوبيين في سورية .
(ص ١١٢)

ان سورية ايضاً ساهمت في الدولة البرية حيث ساعدت الظروف ، كما في الشمال حيث ساعدت الامبراطورية الحيثية .
(ص ١١٣)

الطبعة الثانية

كانت الدولة السورية في عهد حمورابي تمتاز على الدولة المصرية .
(ص ١١١)

(الدولة) جبلت الساميين والشمريين في باب الله (بابل) في سورية الشرقية ، وهي جبلت الشماليين بالجنوبيين في سورية الغربية .
(ص ١١٢)

ان سورية ايضاً ساهمت في الدولة البرية حيث ساعدت الظروف ، كما في الشرق حيث نشأت الامبراطورية الاكادية والامبراطورية الكلدانية ، وكما في الشمال حيث نشأت الامبراطورية الاشورية والحيثية .
(ص ١١٣)

الطبعة الاولى	الطبعة الثانية
لو كانت بغداد واقعة قرب (الرتبة [1]) او بين هذه ودمشق ، او لو كانت الصحراء بين سورية والعراق بلاداً عمرانية آهلة بالسكان ، أما كانت البيئة الموحدة وحدت المجتمع ايضاً . (ص١٦٦)	ان جفاف الاقليم بسبب محق الحرجات والغابات ، الذي ساعد الصحراء على اقتحام التخوم السورية الجنوبية ، وتجويف الصحراء السورية كاد يفصل بين الشام والعراق ، او بين شرق سورية وغربها ، لولا النهران السوريان العظيمان ، الفرات ودجلة اللذان حفظا استمرار العمران السوري وامكانية تكاثره وتوثيق الحياة القومية ضمنه . (١٦٦)
. لجأ الفرس إلى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الاموية، وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين . وتابع العراق الفرس لتصبح السيطرة فيه وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تذوب في العراق وبلاد فارس . (ص١٧٥)	لجأ الفرس إلى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الأموية وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين ، لتصبح السيطرة فيهم . وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تخضع للفرس . (ص ١٧٥) .

[1] يقصد « الرطبة » .

اني اعتقد ان هذه النصوص المتقابلة لا تترك لزوماً لأي تعليق كان .

ومع هذا ، أود أن الفت الانظار ـ بوجه خاص ـ إلى النص الأخير : قال المؤلف ـ في الطبعة الاولى من كتابه « تمسكت سوريا بالسنة ، لكي لا تذوب في العراق وبلاد فارس » ، مما يدل دلالة قاطعة على انه كان يعتبر العراق ، منفصلاً عن سوريا ، كما انه كان يزعم ان سوريا كانت معرضة لخطر الذوبان في العراق وبلاد فارس ، لو لم تتمسك بمذهب السنة . ولكنه ـ في الطبعة الثانية ـ بعد ان قطع شوطاً بعيداً في اعتبار العراق جزءاً من سوريا الطبيعية ، وبعد ان قال بوحدة سوريا والعراق من الوجهة القومية ـ رأى من الضروري ان يحذف كلمة العراق من هذا النص ، فقال : « تمسكت سوريا بالسنة لكي لا تخضع للفرس » ...

*

واما فداحة الشذوذ الذي أظهره انطون سعادة باعتبار العراق جزءاً من أجزاء « سوريا الطبيعية » .. فتظهر بوضوح تام لكل من يرجع إلى حقائق الجغرافية الطبيعية .

فاني أقول بكل جزم وتأكيد : ما من ملاحظة جغرافية ، تستطيع ان تربط اللاذقية ـ مثلاً ـ بالبصرة ، أو سهول حلب بأهوار العمارة ، او الموصل بنابلس أو يافا .

إن الرابطة التي تربط هذه البلاد ـ التي اعتبرها سعادة نفسه قطراً واحداً ـ هي رابطة اللغة والتاريخ ، لا رابطة البيئة

والمناخ والطبيعة .

ولكن مؤسس الحزب السوري القومي ، لم يشأ ان يعترف بأهمية رابطة اللغة والتاريخ ، لأنه شعر بأن الاعتراف بهـذه الرابطة ، قد يضطره إلى توسيع نطاق القومية التي يدعو اليها ، ولذلك راح يحاول ان يختلق روابط جغرافية ، لكي يبرر نزعته السياسية التي ترمي إلى ربط العراق بسوريا دون ربطـه بسائر البلاد العربية .

هذا هو ، في نظري ، السبب الأصلي في تخبط انطون سعادة هذا التخبط الغريب في أمر تقرير حدودسوريا الطبيعية ، وتحديد مفهوم القومية السورية .

ولذلك أقول : ان زعيم الحزب السوري القومي ، لم يستنبط نظرياته السياسية من الابحاث العلمية ، بـل بعكس ذلك ، أراد ان يسخر الابحاث العلمية لخدمة نزعاته السياسية .

مفهوم العروبة

إن الآراء السياسية التي سردها انطون سعادة في تعاليمـه الاساسية عن البلاد العربية ، تبدو لاول وهلة : كخطة متوسطة بين نزعة الاقليمية الضيقة ، وبين فكرة القومية الشاملة .

لأنه يصرح بوحدة سوريا والعراق ــ ولو كان ذلك تحت اسم سوريا ــ ، كما انه يعترف بوجوب قيام الدولة (السورية العراقية) بدور هام في تكوين جبهة قوية مع سائر بلاد العالم العربي .

إن فكرة الجبهة العربية ــ بعد الاعتراف بوحدة سوريـا

والعراق — ، لا تترك هوة عميقة بين القائلين بالقوميــة السورية وبين القائلين بالقومية العربية .

ذلك لأن سير الوقائع وتوالي التجارب يكفلان ملء هذه الهوة وردمها ، بمرور الزمان : إذ من البديهي ان الجبهة المنشودة لا يمكن ان تكون قوية ، ما لم يرتبط اعضاؤها بروابط محكمة . واما إحكام هذه الروابط ، فيستلزم ، تحويل هــذه الجبهة — ولو بصورة تدريجية — الى منظمة فعالة ، تسير قدماً نحو « الفيدرالية » .

*

إلا ان كتابات انطون سعادة — ولا سيما الاخيرة منها — لا تساير منطق التاريخ والاجتماع في هذا المضمار . بل بعكس ذلك ، تسعى لتوسيع الهوة وتعميقها بشتى الصور والاساليب .

انه يتحامل على فكرة القومية العربية تحاملاً عنيفاً جداً وينعت دعاتها بأسوأ النعوت وأشنع الصفات .

يقول عن نفسية القومية العربية ، انها « مرض نفسي شوه العقل السوري والادراك والمنطق » (الحلقة الثانية عشرة — ص ٩) .

ويتكلم عن تفكير « المصابين بمرض العروبة النفسي » (ص ٣٥) وعن « وهم الوحدة العربية » (ص ١٠) ، و « خيال العروبة » و « هذيان الوحدة العربية » (ص ١٠ و ٤٠) .

وينعت العروبة والعقلية العروبية بـ « اللاقومية ، والاتكالية ، واللاتعميرية » ، ويزعم ان هذه العقلية تستلزم المناداة بـ « لا حول ولا قوة إلا بالله » (ص ٣٣) .

وفضلاً عن ذلك كله يدعي : ان فكرة الوحدة العربية ، هي

التي أضاعت على سوريا كيليكيا ، واسكندرونــة وفلسطين .

★

اني لا أرى لزوماً لاقامة الادلة على خطل هذه المزاعم. ولكن أرى من المفيد ان أبحث عن مصدر هذه المزاعم الباطلة ، وان اكشف الستار عن دوافع هذا التحامل العنيف .

اني أعتقد ان اسباب ذلك كله ، تعود الى «سوء فهم» انطون سعادة للمعاني المقصودة من كلـمات « العــرب ، والعروبة ، والقومية العربية » .

أولاً — انه يستعمل في كتاباته كلمتي العـرب والعروبة ، بمعنى البدو والبداوة ، ولذلك ، يزعم ان الدعوة الى العروبة ، إنما تعني العودة إلى حياة البداوة ، والرجوع الى عيشة الصحراء.

إن الادلة على ذلك كثيرة في كتاب نشوء الامم وفي سائر الكتابات. وفيما يلي بعض العبارات المسطورة في كتاب نشوء الامم :

« في شرقنا الادنى ، نرى العرب يسدون حاجاتهم المعاشية مباشرة او بما يشبه المباشرة ، كتناولهم لبن النوق والتقاطهم التمر ، وتربية الجمال اهم شؤونهم الاقتصادية . » (ص ٥٩) .

« من درسنا العرب الذين في جوارنا نرى الفــرد لا يكون عندهم سوى وحدة عددية في القبيلة . » (ص ٥٩) .

« العرب تجري حياتهم ضمن دوائر قبائلهم. ولهم مصالحهم الخاصة في الزواج والرحلة والغزو والسلب . » (ص ١٦٢) .

وفيما يلي بعض العبارات المسطورة في نشرة التعاليم والشروح :

« لولا علو هذه الجبال (اي جبال لبنان) والأنهر المتدفقة

منها ، لكانت الصحراء عمت البلاد ، ولكنا تحولنا الى عـرب (اي الى صحراويين ــ من العربة ــ الصحراء) (ص ١٣٠).

« ماذا نعني بكون الامة السورية احدى امم العالم العربـي ، او احدى الامم العربية ؟ هل نعني ان السوريين هم جزء متمم للعرب (اهل العربة والصحراء) يشكلون معهم شعبـاً واحداً خاصاً يجب ان يرجع الى الاصل ؟ » (١١٣) .

« العرب هم سكان العربة ، كما ان السوريين هـم سكان سوريا . » (ص ١٠٠) .

اني اعتقد ان دلالة هذه العبارات صريحة الى اقصى حدود الصراحة .

ان مدلول كلمتي العرب والعروبة في ذهن انطون سعادة ، يرتبط ويختلط على الدوام مع مدلول البدو والبداوة الصحراوية.

ثانياً ــ يخلط انطون سعادة في كتاباته بين العروبة وبين الاسلامية ويعتبر فكرة القومية العربية ، ضرباً من « الحزبية المحمدية » . إذ نراه يقول في إحدى محاضراته ، ما نصه :

« يوجد عالم يدعى العالم العربـي ، والسبب في دعوة هـذا العالم كذلك ، سبب لغوي ديني في الاساس فهنالك عالم عربـي باللسان ويمكن ان نتدرج ونقول عالم عربـي بالدين الذي يحمل كثيراً من بيئة العرب وحاجاتها ونفسياتها ، والذي هو أهم عامل يصل بين امم العالم العربـي اللسان . » (ص ١١٣) .

كما نراه يقول ، في احدى مقالاته المنشورة في الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية ، ما يلي :

«لبست الحزبية المحمدية – اقول المحمدية لا الاسلامية، لأنني كما اعلنت سابقاً أعتبر الاسلام شاملاً المسيحيين واهل الحكمة ايضاً – في الرجعية الجديدة، لباس «القومية العربية»، وارتكزت على مرتكزين أساسيين، هما اللغة العربية والدين المحمدي اللذان نشرهما الفتح العربي المحمدي» (ص ١٣).

اني اعتقد ان دلالة هذه الفقرات واضحة كل الوضوح.

ان الاخطاء الفاحشة التي يقع فيها انطون سعادة، في تحديد مدلول كلمات العرب والعروبة والقومية العربية، لا تحتاج إلى شرح طويل.

فان مدلول كلمة «عرب» لا يختص بالبدو وسكان الصحراء، او بسكان الجزيرة العربية. انه يشمل جميع الناطقين بالضاد، من بدو وحضر، ومن سكان المدن والارياف والصحارى والجبال.

وفكرة القومية العربية، لا تختص بالمسلمين وحدهم، بل تشمل المسلمين والمسيحيين على السواء.

ومن المفيد ان انقل فيما يلي بعض الفقرات، من القرارات التي اتخذها «المؤتمر الثقافي العربي الاول» الذي انعقد في بيت مري، بلبنان، صيف سنة ١٩٤٧.

«ان العروبة لم تكن في الماضي ولا في الحاضر مقصورة على طائفة من الطوائف او دين من الاديان. وان التعاون بين المواطنين العرب – على تفاوت اديانهم – كان قوياً في الماضي كما كان كذلك في النهضة العربية الحديثة – ولم يفرق اختلاف الاديان بين العرب، الا في العصور التي سادها الحكم الاجنبي. لهذا ينبغي

العناية ببث روح التضامن والتعاون بين مختلف الطوائف ، وإشعارهم بانهم اخوة ، وان من واجبهم ان يضعوا الاهداف القومية فوق الاعتبارات الطائفية » .

ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد ، ان المؤتمر جمع عدداً كبيراً من رجال التربية والتعليم من مختلف الاقطار العربية ، وكان بين أعضائه مسلمون ومسيحيون ، علمانيون وروحانيون.

واعتقد ان هذا القرار ، احسن رد على مزاعم انطون سعادة في هذا المضمار .

★

إن كل شيء يدل على ان سعادة شرع في تأسيس حزبه وتقرير مبادئه ، في الوقت الذي ما كان يعرف شيئاً يذكر عن أحوال البلاد العربية ، ولا عن تاريخ العرب القديم والحديث .

لهذا السبب تورط في مثل هذه الاغلاط الفاحشة ، ولم يستطع ان يتخلص منها - فيما بعد - بسبب انجرافه في معامع النضال الحزبي.

وهذه الاغلاط الاساسية ، كانت بمثابة «خميرة الضلال» التي أفسدت عليه تفكيره ، كما اشرت إلى ذلك قبلاً .

ومما يلفت النظر ، ان هذه الخميرة ظلت تعمل عملها حتى آخر أيام نضاله ، وجعلته يتخبط خبط عشواء في كثير من كتاباته.

واستطيع ان اجزم ، بان تخبطه هذا ، زاد وتفاقم في السنة الاخيرة من حياته النضالية .

وربما كان موقفه من مسألة « الهلال الخصيب» من اغرب وابرز مظاهر هذا التخبط ، كما سيتضح من التفاصيل التالية :

مسألة الهلال الخصيب

●

الهلال الخصيب... استعمل انطون سعادة هذه التسمية مرات عديدة، في مقالاته وخطبه المختلفة ، حتى في تعاليمه الاساسية . ظن، في بادىء الامر، انها من وضع العرب، حيث قال: «لقد تنبه العرب في دقة ملاحظتهم السطحية » إلى وحدة هذه البلاد الجغرافية «فسموها الهلال الخصيب» (تعاليم وشروح— ص ٢٤)

وكرر ذلك مرات عديدة في مناسبات متنوعة . إلا انه اطلع أخيراً على حقيقة الامر في هذه التسمية ، فقال : « لعل العالم التاريخي بريستد ، هو الذي أطلق تعبير الهلال الخصيب .» (الحلقة الثانية عشرة — ص ٥٥) .

وعلى كل حال ، تبنى انطون سعادة هذه التسمية ، وثبتها في نصوص تعاليمه وشروحها .

وقد قال ، في شرح المبدأ الرابع من المبادىء الاساسية ما يلي: « مدلول الامة السورية يشتمل على هذا المجتمع الموحد .. القائم بيئة واحدة ممتازة ، عرفت تاريخياً باسم سوريا ، وسماها العرب الهلال الخصيب » (تعاليم ص ١٩) .

كما انه قال في نص المبدأ الخامس ما يلي « الوطن السوري ،

هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامـــة السورية ، وهي ذات حدود جغرافية ... ويعبر عنها بلفظ عـــام : الهلال السوري الخصيب » (تعاليم ص ٢٣) .

★

ولكن ... من الغريب ، ان انطون سعادة ، بعد ان تبنى — بهذه الصورة الصريحة — اسم « الهلال الخصيب » ، للدلالة على ما أسماه هو سوريا الطبيعية — الممتدة بين البحر المتوسط وبـين جبال زاغروس ، والشاملة للعراق — .. وبعد ان ظل محتفظـاً بهذه التسمية مدة سنوات وسنوات .. فاجأ قراءه في أواخر أيام نضاله بمقالة نارية ، تحت عنوان «نحن سوريون ، لا هلالخصبيون» حمل فيها على فكرة توحيد بلاد الهلال الخصيب حملة شعواء ، وتهكم بدعاة هذه الفكرة تهكماً لاذعاً .

لماذا ؟ لانه توهم ان دعاة هذه السياسة ، أخذوا عنه فكرة « اتحاد سوريا والعراق» ، ولكنهم غمطوا حقه ، وأنكروا فضله في التفكير بذلك لاول مرة . فغضب لذلك غضبة شديدة .

ثم تذكر ان « الهلال » يعتبر في اوروبا وفي بعض البـــلاد الشرقية رمزاً للاسلام ، فتوهم ان دعاة اتحاد الهلال الخصيب ، إنما مالوا لهذه الفكرة ، تحت تأثير التعصب الديني والحزبية المحمدية ! ولذلك حمل على من سماهم «الهلالخصبيون» هذه الحملة العنيفة .

★

هذا ، وارى ان انقل فيما يلي ، القسم الاساسي من هذه المقالة لاعطاء فكرة واضحة عن هذه الحملة وعن دوافعها :

« المسألة العظمى التي اضطر الابداع العروبي إلى مواجهتها وحلها ، هي : كيف يمكننا الرجوع عن قضية القومية الوهمية الباطلة ، بدون ان نظهر اننا رجعنا ؟ وكيف نتجه نحو القومية الواقعية الحقيقية–نحو القومية السورية – بدون ان نعلن اننا اتجهنا نحوها ، وبدون ان نحتاج إلى الاعتراف بصحة الحركة السورية القومية الاجتماعية التي مافتئت تدعونا ، منذ أول نشأتها إلى قوميتنا الحقيقية ؟

« هذه هي المسألة الفكرية العظمى التي اضطر العقل النايورجعي إلى مواجهتها وحلها ، بما يتفق مع كبريائه وعصمته عن الغلط. فاكتشف التعريف الجغرافي الذي اطلق على شكل الارض السورية الخصبة المنحنية في قوس كبيرة فوق الصحراء العربية . ولعل العالم التاريخي بريستد هو الذي اطلق هـذا التعريف الجغرافي «الهلال الخصيب» على سورية الطبيعية ، فتلقفه العروبيون ، كما يتلقف اللاعب الكرة ، لأنه يحل لهم مشكلة ابتلاع بلاد تاريخية ، عريقة بشعبها وثقافتها ، فلا تعود توجد سورية أمامهم ، بل هلال خصيب . والهلال محبوب النايورجعية العروبية كما ان الصليب محبوب النايورجعية التلبننية . فهل ابدع من محو بلاد وانشاء ارض هلالية خضراء تخلق لنا فيها النايورجعية من فنون القوميات ، ما لا تعلمون ؟!

« أتم النايورجعيون خلق الهلال الخصيب ، ولم يحتاجوا إلى الحزب القومي الاجتماعي وتعاليمه في شيء . وهذا أهم شيء في العملية كلها : ان لا يقال ان قضية هذا الحزب فازت في معركة

الحق والباطل ، — معركة الواقع والوهم !

« مهما كانت عقولنا قاصرة في فن خلق الاوطان وإبـداع القوميات ، فاننا نرى ان اصعب مشكلة ستواجه العقلية النايورجعية ، بعد عملية خلق البلاد الجديدة ، هي مشكلة النسبة القوميـة الى الهلال الخصيب : هل تكون مركبة فيقال « هالخصيبيون » ، ام تكون بسيطة فيقال إما «هلاليون» او «مهلهلون» واما «خصيبيون» او «متخصبون» . ولكننا نثق بمقدرة العقلية النايورجعية على التغلب على كل امر عسير ، فلا يبعد ان تجد هذه العقلية الحل في الاحتفاظ بالقومية العربية في الهلال الخصيب ، فلا يكون للقطيع البشري السائم في الهلال ما يميزه الا ما كان من « لون محلي » ، قد يكون الأخضر ، بالنسبة الى دلالته على الخصيب . (الحلقـة الثانية عشرة — ص ٥٥) .

بعد نقل الفقرات المذكورة بحروفها ، أرى ان الفت الانظار قبل كل شيء الى الفقرات التهكمية الاخيرة : اني اعترف ان هذه العبارات التهكمية لا تخلو من قوة الاضحاك . ولكني أرى ان هناك شيئاً مضحكـاً اكثر من كل ذلك ، وهو ان الشخص الذي كتب هذه العبارات التهكمية حول كلمات الهلال الخصيب ، نسي تماماً ، بانه كان قد سمى سورية الطبيعية بهذا الاسم حتى في نصوص تعاليمه الاساسية وشروحها .

واما عن اساس المزاعم المسرودة في هذه الفقرات ، فأقول ما يلي :

أولاً — ان الهلال لم يكن رمزاً للاسلام عند العرب في يوم من الايام ، ولم ترتبط فكرة العروبة بالهلال في وقت من الاوقات

والدول العربية التي نشأت بعد الثورة العربية الحديثة ، لم ترسم الهلال لا في اعلامها ولا في شعاراتها .

ولذلك نستطيع ان نجزم ونؤكد بأن زعم انطون سعادة بأن الساسة الذين يعنيهم في هـــذه المقابلة ، تلقفوا تعبير « الهلال الخصيب » ، لأن الهلال محبوب النايورجعية الاسلامية ، ما هو الا من الاوهام الباطلة من اساسها .

ثانياً ـــ ان فكرة اتحاد سورية والعراق نشأت ليس قبل انتشار تعبير الهلال الخصيب في البلاد العربية فحسب ، بل قبل ميلاد الحزب الذي اسسه انطون سعادة نفسه ايضاً بمدة طويلة .

اني لن اذكر هنا المذاكرات التي جرت والمقـــررات التي اتخذت في هذا الصدد سنة ١٩١٩ ، غير اني سأنقل فيما يلي ، فقرة من القرار الذي اتخذه واعلنه المؤتمر السوري العام ـــ يوم اعلان استقلال سوريا ـــ في ٨ آذار سنة ١٩٢٠ . لم ينس المؤتمر ذكر العراق في قراره التاريخي المذكور ، بل قال عنه في نفس القرار ما يلي :

« بما ان بين القطرين صلات وروابط لغوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية ، تجعل احد القطرين لا يستغني عن الآخر ، فنحن نطلب استقلال القطر العراقي تماماً ، على ان يكون بين القطرين اتحاد سياسي واقتصادي . » (يوم ميسلون ص ٢٦٥) .

أفليس من الغريب ان يجهل انطون سعادة ، أو يتجاهل هذه الوثيقة التاريخية ، ويثور هذه الثورة الغريبة ، ويحاول هذه المحاولة الفاشلة ، لاثبات ابوته لفكرة وحدة سوريا والعراق ، واقدميته في هذا المضمار !

اللغة والارض في تكوين القومية

●

عندما تكلمت عن آراء انطون سعادة العلمية بينت الخطأ العظيم الذي كان وقع فيه ، بمغالاته في تأثير الأرض والبيئة في تكوين القومية ، وباستخفافه بعامل اللغة في هذا الشأن .

فكان من الطبيعي ان تنعكس آثار هذا الخطأ على آرائه السياسية أيضاً : وان تجره إلى اخطاء كبيرة جداً .

إن الدلائل التي ذكرتها آنفاً — خلال بحثي في الآراء العلمية — تغنيني عن البرهنة على خطل آرائه السياسية المستندة إلى تلك الاخطاء العلمية .

ومع هذا ، ارى من المفيد ان اقول كلمة عما جاء في احدى المقالات المسطورة في الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية حول قضية اللغات :

« النفسية والفكر ، لا قيمة لها توازي قيمة اللغة في التفكير النايورجعي العربي . فاذا فكر مفكر سوري وتأمل في الحياة ، وكتب تأملاته باللغة الصينية ، صار تفكيره صينياً قومياً ، لأنه استخدم اللغة الصينية أداة عرضية للتعبير عن فكره الجوهري وموحيات نفسه ، فالقيمة هي اللغة ، وهي الرباط النايورجعي

الأول ، الذي يربط الجماهير بكائن القومية . فما ابدع هـــذا التفكير الذي يسميه انطون سعادة تفكيراً تقدمياً رجعياً ، اي انه يتقدم رجوعاً إلى الوراء » . (ص ٢٥) .

ان هذه الأقوال تتضمن تشويهاً صريحاً لآراء المؤمنين بالعروبة. لأني لا أعرف ان واحداً منهم قال : « إذا فكر مفكر سوري وكتب باللغة الصينية ، صار تفكيره صينياً قومياً ، لأنه استخدم اللغة الصينية أداة عرضية للتعبير عن فكرة » . فان اللغة التي نعتبرها نحن أس الأساس في بناء القومية ، هي اللغة الاصلية ، لغـة الأم والبيت التي ينشأ عليها ويشترك فيها جميع أفراد الشعب ، لا اللغة العارضة ، التي يتعلمها ويستخدمها الانسان ، في بعض الأحيان »

وإلا ، لو اتبعنا طريقة التهكم والانتقـــاد التي أملت الكلمات الآنفة الذكر ، في تفنيد نظرية الأرض والبيئة ، لحق لنا ان نقول : « إذا ولد طفل انجليزي في دمشق ــ مثلاً ــ صار ، في نظر انطون سعادة سورياً قومياً ، لانه فتح عينيه للنور في سوريا ... »

ولكن لن اسلك هذا المسلك الذي يخالف مناحي البحث العلمي مخالفة كلية ، وسأعود إلى اساس الموضوع :

نحن لم نقل أبداً « ان النفسية والفكر لا قيمة لهما توازي قيمة اللغة » لاننا ، أولاً ، لا نعتقد بجواز فصل اللغة عن النفسية والفكر . وذلك لاننا نعلم ان اللغة هي أداة التفكير ، كما انها أهم وسائل التعبير عن خلجات النفس . ثم اننا نعتقد في الوقت نفسه بأن اللغة واسطة اتصال الاجيال الجديدة بالاجيال القديمة ، وواسطة انتقال المكتسبات الفكرية من جيل إلى جيل . ولذلك نقول : ان وحدة اللغة هي أهم

وامتن الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وهي أفضل العوامل التي تؤثر في تكوين شخصيات الامم .

اننا لم نقل « ان النفسية والفكر ليس لها قيمة توازي قيمة اللغة » ولكنا قلنا ولا نزال نقول : « ان الارض والبيئة ، ليس لها قيمة توازي قيمة اللغة » .

هذا هو أساس الخلاف بيننا وبين انطون سعادة .

وهل يستطيع احد ان ينكر صحة قولنا هـذا ، دون ان يشوهه ، ودون ان يغالط فيه ؟

كان انطون سعادة قد تكلم باسهاب في كتابه نشوء الامم ، عن تأثير الملك والأرض في تكوين شخصيات الأفراد والجمعيات .

فهل يمكن لأحد ان يدعي : ان اللغة التي ينشأ عليها المرء ، هي أقل أهمية من الأرض التي يملكها ؟ وهل يستطيع احد ان يزعم ان الملك ألصق بشخصية الانسان من اللغة ؟

إن الأرض التي يملكها الانسان قد تخرج من حوزته عن طريق البيع او الغصب او الاستملاك او المصادرة ، ولكن اللغة التي ينشأ عليها ، هل يمكن ان تفارقه ، بسبب ما يشبه البيع او الغصب او المصادرة ؟

أفلا يحق لنا ان نستغرب كل الاستغراب : كيف يزعم سعادة ان الأرض جزء من شخصية الفرد وشخصية الجماعة ، ثم يتهم العروبيين بالرجعية او النايورجعية ، لأنهم يعتقدون ان اللغة ألصق بالشخصية والنفسية من الارض ، ومن اي شيء آخر ؟

هذا ، واذا نقلنا الكلام عن الأرض المملوكة ، الى أرض

الوطن ، وجدنا أنفسنا امام نتيجة مماثلة لما ذكرناه آنفـاً تمام المماثلة : ان الفرد ، قد يغترب عن ارض الوطن ، وقـد يطرد منها . ولكنه لا يمكن ان يغترب عن لغته ، او يطرد منها ، فانها تنتقل معه ، في قرارة نفسه ، أينما ذهب .

ألم يكن ذلك كله ، دليلاً قاطعاً على الخطأ العظيم الذي وقع فيه انطون سعادة ، عندما قلـل من شأن اللغة ، وانكـر على العروبيين استنادهم الى اللغة .

★

هذا ، وقد كتب انطون سعادة في احدى مقالاته ما يلي :

« ان القضاء على التعصب الديني ومحو لعنة الحزبية الدينية يكون بالاتجاه الى الأرض وترابط جبالها وسهولها بأنهارها ، والى الشعب بنسيجه الدموي وتفاعله اليومي في الحياة مع الأرض ـــ بادراك ان الحزبية الدينية تصرفنا عن واقع الوطن ، وتشوه حقيقة الأمة » .

اني اؤيد ما جاء في هذه الفقرات من وجوب « القضاء على التعصب الديني ، ومحو لعنة الحزبية الدينية » غير اني لا استطيع ان اسلم بما جاء فيها ، من ان ذلك يكون بالاتجـاه الى الأرض والى الشعب .

لأني اعلم ان الأرض ، ليس لها حدود ثابتة ، بل يمكن ان تقسم بأشكال وأساليب مختلفة ، ومن البديهي ان اختيار وترجيح شكل من هذه الأشكال ، واسلوب من هـذه الاساليب يفسح مجالاً واسعاً للاختلاف . فالتوجه الى الأرض وحـده لا يكفي لجمع الكلمة والوصول الى الغاية المنشودة .

واما الشعب ، فأعتقد ان امره لا يكون أقل مثاراً للخلاف من الارض . الشعب ، ولكن اي شعب ؟ شعب القرية ، شعب الناحية ، شعب الدولة ؟ الشعب الاردني ، الشعب السوري بمعناه المعروف ، ام الشعب السوري بالمعنى الذي يقول به انطون سعادة ؟

ما الذي يكون الحكم في هذه الامور ؟ النسيج الدموي ؟ ولكن ، من يعرفه ومن يشعر به ، ومن يستطيع ان يبت فيه ؟ وكيف يمكن الاتفاق في أمره ؟

التفاعل اليومي في الحياة مع الارض ؟ ولكن ذلك ، ألا ينحدر بنا إلى مهواة التجزئة والتفرقة التي لا يمكن ان تقفا عند حد ؟

كلما تعمقنا في البحث والتفكير ، تأكدنا من انه لا سبيل يوصلنا إلى الغاية المنشودة ، إلا سبيل اللغة أولاً والتاريخ ثانياً .

*

وفي ختام بحث اللغة والارض ، أود ان اوجه الانظار الى الحقائق والاسئلة التالية :

اذا نظرنا الى الامور من وجهة الاحوال الطبيعية والمناخية ، رأينا ان سوريا تشبه تونس أكثر مما تشبه العراق ، والعراق يشبه مصر ، أكثر مما يشبه سوريا .

ان انطون سعادة نفسه يربط — في جميع كتاباته — قرطاجنة بسورية . فكيف يسوغ له ان لا يعترف بوجود رابطة محكمة بين سوريا وتونس ؟

انه يدخل قرطاجنة والقرطاجيين في عداد المفاخر القومية السورية فبأي حق يخرج الاندلس والاندلسيين من نطاق هذه المفاخر ؟

غرور الزعامة عند انطون سعادة

•

من أهم ما يلفت النظر في كتابات انطون سعادة وأعماله ، هو : ايمانه العميق بمبادىء حزبه ، ونشاطه الكبير في سبيل نشر دعوته وتنظيم حزبه ، واعتداده الشديد بنفسه ، اعتداداً يصل به أحياناً الى درجة الزهو والخيلاء .

انه يعتبر نفسه صاحب رسالة ، وهادياً للناس ، ويزعم ان ظهور حزبه الى عالم الوجود سيغير مجرى التاريخ ، بل بدأ يغير وجه الشرق .

ان ابرز مظاهر هذه النفسية تتجلى في الخطاب الذي القاه «في أول نوفمبر ١٩٣٥» ، والذي اعتبره «من الوثائق والتعاليم الاساسية» في الحركة السورية القومية الاجتماعية. وقد كرر سعادة قراءة هذا الخطاب خلال المحاضرة الثانية التي القاها في الندوة الثقافية ، بغية شرح تعاليم الحزب ، في «١٨ يناير ١٩٤٨» .

يبدأ انطون سعادة خطابه بما يلي :

« منذ الساعة التي أخذت فيها عقيدتنا القومية الاجتماعية تجمع بين الافكار والعواطف ، وتلم شمل قوات الشباب المعرضة للتفرقة بين عوامل الفوضى القومية السياسية المنتشرة في طول بيئتنا

وعرضها، وتكوّن من هذا اللم نظاماً جديداً ، وأساليب جديد يستمد حياته من القومية الجديدة ، هو نظام الحـزب القومي الاجتماعي — منذ تلك الساعة انبثق الفجر من الليل ، وخرجت الحركة من الجمود . وانطلقت من وراء الفوضى قوة النظام ، واصبحنا امة بعد ان كنا قطعاناً بشرية ، وغدونا دولة تقوم على اربع دعائم : الحرية ، الواجب ، النظام ، القوة ، التي ترمـز الى اربعة اطراف الزوبعة القوميـة الاجتماعية ، الممثلة في عـلم الحزب السوري القومي الاجتماعي .

منذ تلك الساعة نقضنا بالفعل حكم التاريخ ، وابتدأنا تاريخنا الصحيح ، تاريخ الحرية والواجب والنظام والقوة ، تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي ، تاريـخ الأمة السورية الحقيقي .

منذ الساعة التي عقدنا فيها القلوب والقبضات على الوقوف معاً والسقوط معاً في سبيل تحقيق المطلب الأعلى المعلن في مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي ، وفي غايته ، وضعنا ايدينا على المحراث ، نظرنا الى الأمام ، الى المثـال الأعلى ، وصرنا جماعة واحدة وامة حية ، تريد الحياة الحرة الجميلة — امة تحب الحياة لأنها تحب الحرية ، وتحب الموت ، متى كان الموت طريقاً الى الحياة » (تعاليم وشروح — ص ٦٦ و ٦٧) .

وبعد التوسع في وصف الاهداف، قال سعادة ، في خاتمـة الخطاب ما يلي :

« ان هذه القوة النظامية ، ستغير وجه التاريـخ في الشرق الادنى . ولقد شاهد اجدادنا ، الفاتحـين السابقين ومشوا على

بقاياهم . اما نحن فسنضع حداً للفتوحات .

« تحت طبقة الثرثرة والصياح المنتشرة فوق هذه الامة، يقوم السوريون القوميون الاجتماعيون بعملهم بهدوء واطمئنان . وتمتد روح الحزب السوري القومي الاجتماعي في جسم الامة وتنظم جماعاتها ، ولكن سيأتي يوم ، وهو قريب، يشهد فيه العالم منظراً جديداً وحادثاً خطيراً: رجالاً متمنطقين بمناطق سوداء على لباس رصاصي تلمع فوق رؤوسهم حراب مسنونة ، يمشون وراء رايات الزوبعة الحمراء ، يحملها جبابرة من الجيش . فتزحف غابات الاسنة صفوفاً بديعة النظام ، لتكوّن ارادة الأمة السورية لا ترد ، لأن هذا هو القضاء والقدر» (تعاليم وشروح – ص٧٢).

ولكن غرور الزعامة الذي استحوذ على نفسية انطون سعادة يتجلى بوضوح اكبر ، من رسالة ارسلها من الارجنتين في ١٠ كانون الثاني سنة ١٩٤١ .

وكان مما جاء في هذه الرسالة ما نصه حرفياً :

«آمنتم بي معلماً وهادياً للامة والناس ، ومخططاً وبانياً للمجتمع الجديد ، وقائداً للقوات الجديدة الناهضة الزاحفة بالتعاليم والمثل العليا الى النصر» . (الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة الابحاث السورية القومية الاجتماعية . ص – ٧) .

من المعلوم ان الاعتداد بالنفس، يغذي العزم، ويحمل على النشاط غير انه اذا وصل الى هذا الحد من الشدة، تحول الى الزهو والخيلاء، وأضاع على صاحبه سلامة التفكير واصابة العمل، في كثير من الاحيان. وأظن ان هذا ما حصل فعلاً ، في حياة انطون سعادة .

العروبة

في نظر الدول والاحزاب

العروبة
في ميثاق جامعة الدول العربية

●

ان الدول العربية المستقلة السبع ، قد عقدت فيما بينها ميثاقاً، عرف باسم « ميثاق جامعة الدول العربية » .

هذه الدول السبع هي — حسب ترتيب حروف الهجاء — : المملكة الاردنية الهاشمية، الجمهورية السورية ، المملكة العراقية، المملكة العربية السعودية ، الجمهورية اللبنانية ، المملكة المصرية، المملكة اليمنية المتوكلية .

واما الغاية من هذا الميثاق ، فسطورة في ديباجته :

« ان ملوك ورؤساء الدول العربية السبع ، اتفقوا على عقد الميثاق » المذكور :

« تثبيتاً للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط بين الدول العربية ، وحرصاً على دعم هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها ، وتوجيهاً لجهودهـا الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة، وصلاح أحوالها ، وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأي العربي العام في جميع الاقطار العربية » ..

ان توقيع الدول العربية على هذا الميثاق ، يدل على الامور التالية :

ان كل دولة من الدول المذكورة :

أولاً ، تعترف بأنها دولة عربية ، وان البــلاد التي تحكمها بلاد عربية .

ثانياً ، تسلم بوجوب تعاون الدول العربية تعاوناً وثيقاً لتأمين مستقبلها وتحقيق امانيها وآمالها .

ثالثاً ، تعترف بانها تعقد هذا الميثاق استجابة للرأي العربي العام في جميع اقطارها .

رابعاً ، تعلن بأن من واجب الدول العربية المستقلة انتساعد البلاد العربية المحرومة من الاستقلال .

★

ان القضية الاخيرة موضحة في « ملخص خاص بالتعاونمع البلاد العربية غير المشتركة في مجلس الجامعة » .

وينص الملحق المذكور على ما يلي :

« نظراً لأن الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسهــا وفي لجانها شؤوناً يعود خيرها واثرها عــلى العالم العربي كله ، ولأن اماني البلاد العربية غير المشتركة في المجلس ينبغي له ان يرعاها وأن يعمل في تحقيقها .

« فان الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنيها بوجه خاص أن توصي مجلس الجامعة ، عند النظر في اشراك تلك البلاد في اللجان المشار اليها في الميثاق ، بأن يذهب في التعاون معها الى

أبعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك ، بألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم أمانيها وآمالها ، وبأن يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها ، بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من أسباب .

★

ومما يجب ان يلاحظ ان الرابطة التي أوجدها هذا الميثاق بين الدول المشتركة فيه ، رابطة ضعيفة ، بل واهية . لان الميثاق لم يمنح مجلس الجامعة أية سلطة تنفيذية ، كما انه لم يجعل مقرراتها ملزمة للجميع .

فان المادة السابعة من الميثاق تنص على ما يلي :

« ما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة ، وما يقرره بالاكثرية يكون ملزماً لمن يقبله » .

وذلك يعني : ان كل دولة من الدول الموقعة على الميثاق ، تستطيع ان تخالف اي قرار من القرارات التي قد يتخذها مجلس الجامعة — وان تمتنع عن تنفيذ ذلك القرار — ولو كان قد صدر باجماع بقية الدول الست !

من المؤكد ان معظم الدول العربية ، كانت ترغب في جعل جامعتها أوثق ترابطاً مما تقرر في هذا الميثاق ، الا انها اضطرت الى قبول النص المذكور ، مراعاة لنزعة التحفظ والحذر التي بدت من بعض الدول العربية ، وأملاً في ان يعدل الميثاق فيما بعد عندما تطمئن الدول المذكورة على سير الامور ، وتترك التحفظ والحذر .

ان امل واضعي الميثاق في هذا الامر ، يبدو جلياً كل الجلاء، في فقرة وردت في المادة التاسعة عشرة من الميثاق :

« يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة ان يعدل هـــذا الميثاق ، وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها امتن وأوثق .. »

اني اعتقد ان هذا النص يدل على شيء اكثر من الامـــل ، انه يدل على امنية ورغبة أيضاً .

إلا ان الدول العربية ، لم تقدم الى الآن – مع الأسف الشديد على أي عمل لتحقيق هذا الأمل وهذه الأمنية ، ولم تخط خطوة واحدة في سبيل تعديل الميثاق « لجعل الروابط بينهـــا امـــتن وأوثق » – وذلك على الرغم من مرور ست سنوات على تاريخ وضع الميثاق .

*

هذا ، ومن اهم المواد الواردة في الميثاق ، المادة التاسعة التي تنص على ما يلي :

« لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعـــاون أوثق وروابط أقوى مما نص عليه هذا الميثاق ، ان تعقـــد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الاغراض » .

تدل هذه المادة على انواضعي الميثاق لاحظوا انجميع الدول العربية لم تكن في مرتبة واحدة من الاستعداد والرغبة الى «تعاون أوثق وترابط أمتن» مما نص عليه «ميثاق جامعة الدول العربية» ، كما انها لم تكن في درجة واحدة من الشعور بحاجة الى مثل هـــذا التعاون والترابط. ولذلك رأوا ان يتركوا للدول الاعضاء الحرية

كاملة لعقد اتفاقات ثنائية ، أو ثلاثية ، أو رباعية فيما بينها ..

ولكن هذه المادة أيضاً بقيت إلى الآن حبراً على ورق : لم تقدم دولة من الدول العربية على الاستفادة من الحرية المتروكة لها بهذه المادة، لتمتين وتوثيق الروابط التي تربط بعضها ببعض.

بل ... حدث عكس ذلك تماماً :

قام بين سوريا ولبنان اختلاف شديد على تفهم وتقدير المصالح الاقتصادية الحقيقية . وأدى هذا الاختلاف الى الغاء « اتفاقية المصالح المشتركة » التي عقدت بين الجمهوريتين، في بداية عهد استقلالها ، وبدأ بذلك بين البلدين عهد «القطيعة الاقتصادية» التي تدهش العقول ، وتفتت الاكباد .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، كلما قامت « حركة اتحادية » ترمي الى توحيد قطرين من الاقطار العربية — ولو في بعض الامور الاساسية — تألبت عليها الدول الاخرى، واخذت تعمل لاحباط مساعي الاتحاد ، وذلك بحجة الحرص على « التوازن » بين الدول العربية .

★

سياسة التوازن بين الدول العربية ..

اني أشعر بألم شديد ومرارة عميقة ، كلما قرأت او سمعت أمثال هذه العبارات ..

وآسف أسفاً لا حد له ، عندما اجد البعض يعارض فكرة «الوحدة أو الاتحاد» معارضة شديدة ، زاعماً « انها تخل بهذا التوازن» وتؤدي بذلك الى تصدع بناء «جامعة الدول العربية » .

التوازن بين الدول العربية ، أو بين كتل الدول العربية ... اني اعتبر ان مجرد التفكير في ذلك ، يخالف « روح القومية العربية » مخالفة أساسية .

ذلك لأن ، مفهوم «التوازن» في الطبيعة يتضمن —في حد ذاته— وجود «تخالف وتعاكس» بين قوتين أو بين منظمتين او اكثر من القوى. وفكرة «التوازن» في السياسة تتضمن وجود « تنافس وتخاصم » بين دولتين او بين كتلتين من الدول .

ولذلك ، نستطيع ان نقول: ان المعاكسة والمنافسة والمخاصمة هي من العناصر التي لا تنفك عن «فكرة التوازن».. في الطبيعة وفي السياسة .

وكل ما نعرفه من وقائع « سياسة التوازن الدولي » في التاريخ كان ناتجاً عن قيام منافسات شديدة وخصومات عنيفة بين الدول المختلفة .

فهل يجوز ان تقوم بين الدول العربية أمثال هذه الخصومات والمنافسات ، التي تستلزم إعمال الذهن لايجاد التوازن بينها ؟

ان الخصومات التي يشير اليها دعاة «التوازن» في العالم العربي ليست —في حقيقة الامر— قائمة بين الشعوب العربية ، حتى ولا بين الدول العربية ، إنما هي قائمة بين رؤساء بعض الدول .

أفلا يجب — والحالة هذه — بذل أقصى الجهود لإزالة تلك المنافسات ، عوضاً عن اتخاذها ذريعة لتوقيف حركات الاتحاد ؟

قد قرأت في احدى الجرائد ، تلخيصاً لآراء الفريق الذي يعارض الاتحادات الجزئية —مراعاة للتوازن— أنقلها فيما يلي بحروفها :

«يذهب هذا الفريق... إلى القول بأن الوحدة الثنائية أو الثلاثية ليست في مصلحة العرب الآن، لأنها ستطيح حتماً بعالم الجامعة العربية، فتفكك عراها. وينقسم العالم العربي إلى معسكرين يتناصبان العداء السافر الصريح، بعد ان تناصباه، حقبة طويلة، من خلال الأقنعة والبراقع، فأدى ذلك العداء المقنع والمعروف إلى تفرق العرب وضياع كلمتهم في المحافل الدولية».

يتبين من ذلك ان رأي هذا الفريق من معارضي الاتحاد، يتلخص في «استبعاد فكرة الاتحاد بين أي قطرين من الاقطار العربية، لكي لا يصبح «هذا العداء سافراً، بعد ان كان مقنعاً».

فهل يعتقد هؤلاء المعارضون، ان الداء المقنع أقل شراً، واخف ضرراً من العداء السافر؟

وأما انا، فأعتقد عكس ذلك تماماً:

لأني أعلم العلم اليقين: ان الامراض النفسانية والجسمانية بوجه عام - لا يمكن ان تعالج وتشفى، طالما بقيت خفية مقنعة.

ولا ادري اية فائدة ننتظر من هيئة ينقسم أعضاؤها إلى معسكرين يتناصبان العداء من وراء الستار؟

وأي خير يرجى من العمل لادامة هذه الحالة، وللحيلولة دون كشف الستار عن هذا العداء المقنع؟

انا اعتقد انه خير للمرء ان يسير وحده من ان يسير مع من يضمر له الشر والعداء ويتحين الفرص للاضرار به.

وخير للدولة ان تحارب وحدها، من ان تتفق وتحارب مع دولة تعاديها سراً، وتستعد لخيانتها في أحرج الاوقات.

ولذلك كله انا اعتقد : ان اول الواجبات التي تترتب على القوميين المخلصين ، هو السعي بكل جد ونشاط ، وراء ازالة هذه المنافسات من صدور الرؤساء والحكام ، لا العمل لتوقيف حركات الاتحاد ، مراعاة للتوازن الذي تقتضيه تلك المنافسات .

وأما «السياسة الضيقة» التي لا تفكر في شيء غير ابقاء العداء مقنعاً ولا تسعى لشيء غير الحيلولة دون سفور ذلك العداء... فانها تشبه — في نظري — «خطة النعامة» التي يضرب بها المثل في كل اللغات .

العروبة في الدستور السوري

ان الدستور السوري الجديـــد الذي وضعته وقررته الجمعية التأسيسية في ٥ ايلول سنة ١٩٥٠ ، هو الدستور الوحيـــد الذي يصرح بوحدة الامة العربية .

وقد صدرت الجمعية التأسيسية هذا الدستور — بمقدمة موجزة — اعلنت انها جزء متمم له — ، وبدأتها بالعبارات التالية :

« نحن ممثلي الشعب السوري العربي ، المجتمعين في جمعية تأسيسية ، بارادة الله ورغبة الشعب الحرة ، نعلن اننـــا وضعنا هذا الدستور لتحقيق الاهداف المقدسة التالية » .

وبعد تعداد وتفصيل هذه الاهداف قالت الجمعية التأسيسية :

« ونعلن ان شعبنا الذي هو جزء من الامة العربية ، بتاريخه وحاضره ومستقبله ، يتطلع الى اليوم الذي تجتمع فيه امتنا العربية في دولة واحدة ، وسيعمل جاهـــداً على تحقيق هـــذه الامنية المقدسة ، في ظل الاستقلال والحرية » .

واما الدستور نفسه ، فقد نص على ان الشعب السوري جزء من الامة العربية ، وحتم على النواب وعلى رئيس الجمهورية ، السعي وراء تحقيق الوحدة العربية .

وقد جاء في مادته الاولى ما يلي نصه :

١ — سورية جمهورية عربية ديمقراطية نيابية ذات سيادة تامة :

٢ — وهي وحدة سياسية لا تتجزأ ، ولا يجوز التخلي عن جزء من أراضيها .

٣ — والشعب السوري جزء من الامة العربية » :

وجاء في المادة السادسة والاربعين ما نصه :

« قبل ان يتولى النواب عملهم يقسم كل واحد منهم علناً امام المجلس اليمين التالية :

« اقسم بالله العظيم ان اكون مخلصاً لدستور البلاد ومدافعاً عنه وعن استقلال الوطن وحريات الشعب ومصالحه وامواله وكرامته ، وان احترم قوانين البلاد ، وان اقوم بمهمة النيابة بشرف وصدق واخلاص ، وان اعمل لتحقيق وحدة الاقطار العربية » .

وجاء في المادة الخامسة والسبعين ما نصه : « قبل ان يمارس رئيس الجمهورية ولايته ، يحلف امام مجلس النواب اليمين التالية :

« اقسم بالله العلي العظيم ان أحترم دستور البلاد وقوانينها ، وان اكون اميناً على حريات الشعب ومصالحه وامواله ، وان اكون مخلصاً للنظام الجمهوري ، وان أبذل جهدي وكل ما لدي من قوة للمحافظة على استقلال الوطن والدفاع عن سلامة أرضه ، وان اعمل على تحقيق وحدة الاقطار العربية » .

هذا وقد راعى الدستور ما تقتضيه فكرة الوحدة العربية في أمر الجنسية ، فنص في مادته الحادية والثلاثين على ما يلي :

« تحدد شروط الجنسية السورية بقانون . ويكون تسهيل خاص للمغتربين السوريين وأبنائهم وأبناء الاقطار العربية » .

يلاحظ ان الدستور السوري الجديد ، قد تبنى فكرة الوحدة العربية بصورة رسمية .

العروبة في مناهج الاحزاب السياسية

إن مناهج معظم الاحزاب السياسية القائمة في سورية والعراق ولبنان ، تحدد موقفها من العروبة ، بصراحة . وذلك إما في فصول خاصة ، تحمل عناوين خاصة ، — مثل : السياسة القومية ، أو السياسة العربية — ، وإما في فصول عامة ، تتناول القضايا العامة — مثل : مبادىء الحزب ، او السياسة الخارجية .

إننا ندرج فيما يلي ، المواد المتعلقة بذلك ، مستخرجة من مناهج الاحزاب التالية :

في سورية : الحزب الوطني ، حزب الشعب ، الحزب التعاوني الاشتراكي ، الحزب الجمهوري الديمقراطي ، الحزب العربي الاشتراكي .

في العراق : حزب الاستقلال ، حزب الاتحاد الدستوري ، الحزب الوطني الديمقراطي ، حزب الامة الاشتراكي .

في لبنان : الجبهة الاشتراكية الوطنية ، الكتلة الوطنية اللبنانية ، حزب النداء القومي .

الاحزاب السورية

●

الحزب الوطني

السياسة القومية

١ — ان العرب في أنحاء وطنهم كافة امة واحدة والسوريون جزء منها ، وسياسة الحزب تقوم على هذا الاساس .

٢ — ان الحزب يسعى إلى تحرير سائر اجزاء الوطن العربي واستكمال سيادتها ويتضامن في هذا السبيل مع مختلف المنظمات والمراجع القومية .

٣ — ان الحزب يعمل على تمكين الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والتشريعية وغيرها بين أجزاء الوطن العربي توصلاً لتحقيق غاياته القومية على الوجه الصحيح .

والحزب يعتبر جامعة الدول العربية مؤسسة قومية يعلق عليها آمالاً كبيرة في الاهداف القومية ويسعى لتقويتها وتعزيزها .

٤ — يقاوم الحزب كل نزعة او سياسة او حركة مخالفة لاماني الامة العربية ، ويعتبر الصهيونية حركة عدائية خطرة على الكيان العربي ، فيسعى بكل الوسائل لمناهضتها ، ويعمل على صيانة عروبة فلسطين وتحريرها .

حزب الشعب

السياسة القومية

العرب في مختلف ديارهم أمة واحدة ذات كيان واحد تتوفر فيه عناصر الوحـــدة الشاملة من روحية وسياسية واقتصاديـــة واجتماعية .

إلى ان تتحقق الوحدة المنشودة يرى الحزب ان يسعى اليهـا بالطريقتين التاليتين :

أولاً ــ إقامة اتحاد دولي بين سوريا والاقطار العربية .

ثانياً ــ اتخاذ الجامعة العربية وسيلة إلى :

أ) توحيد السياسة الخارجية في البـــلاد العربية وتوحيـــد التمثيل الخارجي .

ب) توحيد قوى الدفاع العربي في قيادته وانظمته .

ج) توحيد التشريع .

د) اعتبار بلاد دول الجامعة العربية وحدة جمركية .

هـ) اعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية وتوحيد المنهـــاج الاقتصادي .

و) توحيد مناهج التعليم .

ز) الغاء جوزات السفر بين بلاد دول الجامعة العربية .

ح) توحيد النقد العربي وتأسيس مصرف اصدار مشترك .

مساعدة الاجزاء العربية التي لم تستكمل سيادتها بعدعلى استكمال هذه السيادة وبذل الجهـــود لتحرير الأجزاء

الرازحة تحت نير الاستعمار .

مقاومة تسلل النفوذ الاجنبي في شتى اشكاله وصوره إلى اي جزء من اجزاء الوطن العربي .

فلسطين بكاملها جزء لا يتجزأ من الوطن العربي وعلى سلامتها تتوقف سلامة هذا الوطن ، فيرى الحزب ان من اول واجباته مكافحة الصهيونية والوطن القومي اليهودي فيهـا مهما كلف الامر من جهود وتضحيات .

السعي لتنظيم وتوجيه الرأي العام العربي نحو الاهداف العربية المشتركة ، وذلك بايجاد الاتصال بين الاحزاب السياسية العاملة على تحقيق تلك الاهداف .

الحزب التعاوني الاشتراكي

المبدأ الاول

تعمل التعاونية – الاشتراكية على اقامة اتحـاد بين العرب والمسلمين يضم الدول المحلية الممثلة بمجالس نيابية وحكومات شعبية ، ترأسه حكومة اتحادية تعمل بارشادات مجلس اتحادي .

وينظم الاتحاد وحدة سياسية ، واقتصادية ، وتدعمه قوة عسكرية موحدة تمكنه من حماية مصالح المواطنين ، والقيام على اكمل وجه بما تفرضه مصلحته دون ان يلم به ضعف او تخاذل تحت ضغط السياسة العالمية .

حزب البعث العربي

المبادىء الاساسية – وحدة الامة العربية وحريتها .

العرب امة واحدة لها حقها الطبيعي في ان تحيا في دولة واحدة وان تكون حرة في توجيه مقدراتها .

ولهذا فان حزب البعث العربي يعتبر :

١ — الوطن العربي وحدة سياسية اقتصادية لا تتجزأ ولا يمكن اي قطر من الاقطار العربية ان يستكمل شروط حياته منعزلاً عن الآخر .

٢ — الامة العربية وحدة روحية ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة بين ابنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

٣ — الوطن العربي للعرب ، ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدراته .

شخصية الامة العربية

الامة العربية تختص بمزايا متجلية ، في نهضاتها المتعاقبة ، وتتسم بخصب الحيوية والابداع ، وقابلية التجدد والانبعاث ، ويتناسب انبعاثها دوماً مع نمو حرية الفرد ومدى الانسجام بين تطوره وبين المصلحة القومية .

ولهذا فان حزب البعث العربي يعتبر :

١ — حرية الكلام والاجتماع والاعتقاد والفن مقدسة لا يمكن أية سلطة ان تنتقصها .

٢ — قيمة المواطنين تقدر — بعد منحهم فرصاً متكافئة — بحسب العمل الذي يقومون به في سبيل تقدم الامة العربية وازدهارها دون النظر الى اي اعتبار آخر .

رسالة الامة العربية

الامة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ، وترمي إلى تجديد القيم الانسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الامم .

ولهذا فان حزب البعث العربي يعتبر :

١ — الاستعمار وكل ما يمت اليه عمل اجرامي يكافحه العرب بجميع الوسائل الممكنة وهم يسعون ضمن امكانياتهم المادية والمعنوية إلى مساعدة جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتها .

٢ — الانسانية مجموع متضامن في مصلحته ، مشترك في قيمته وحضارته ، فالعرب يتغذون من الحضارة العالمية ويغذونها ويمدون يد الاخاء إلى الامم الاخرى ويتعاونون معها على ايجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام ، والسمو في الخلق والروح .

مبادىء عامة :

... حزب (البعث العربي) حزب عربي شامل تؤسس له فروع في سائر الاقطار العربية ، وهو لا يعالج السياسة القطرية إلا من وجهة نظر المصلحة العربية العليا . (المادة ١)

... مركز الحزب العام هو حالياً دمشق ويمكن ان ينقل إلى اي مدينة عربية اخرى إذا اقتضت ذلك المصلحة القومية . (المادة٢)

... حزب (البعث العربي) قومي يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بامته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على

التضحية ، باعث على الشعور بالمسؤولية ، عامل على توجيه انسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً .

والفكرة القومية التي يدعو اليها الحزب هي إرادة الشعب العربي ان يتحرر وان تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ ، وان يتعاون مع سائر الامم على كل ما يضمن للانسانية سيرها القويم إلى الخير والرفاهية . (المادة ٣) .

... حزب (البعث العربي) اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية لأنها النظام الامثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق امكانياته وتفتح عبقريته على اكمل وجه فيضمن للامة نمواً مطرداً في انتاجها المعنوي والمادي وتآخياً وثيقاً بين افرادها . (المادة ٤) .

... حزب (البعث العربي) شعبي يؤمن بأن السيادة هي ملك الشعب وانه وحده مصدر كل سلطة وقيادة وان قيمة الدولة ناجمة عن انبثاقها عن ارادة الجماهير ، كما ان قدسيتها متوقفة على مدى حريتهم في اختيارها . لذلك يعتمد الحزب في اداء رسالته على الشعب ويسعى للاتصال به اتصالاً وثيقاً ويعمل على رفع مستواه العقلي والاخلاقي والاقتصادي والصحي لكي يستطيع الشعور بشخصيته وممارسة حقوقه في الحياة الفردية والقومية . (المادة ٥) .

... حزب (البعث العربي) انقلابي يؤمن بأن أهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن ان تتم إلا عن طريق الانقلاب والنضال . والاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالاصلاح الجزئي السطحي يهددان هذه الاهداف

بالفشل والضياع ، لذلك فهو يقرر :

١ ـ النضال ضد الاستعمار الاجنبي لتحرير الوطن العربي تحريراً مطلقاً كاملاً .

٢ ـ النضال لجمع شمل العرب كلهم في دولة مستقلة واحدة .

٣ ـ الانقلاب على الواقع الفاسد انقلاباً يشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية . (المادة ٦) .

... الوطن العربي هو هذه البقعة من الارض التي تسكنها الأمة العربية والتي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكوه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة والصحراء الكبرى والمحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط . (المادة ٧) .

... لغة الدولة الرسمية ولغة المواطنين المعترف بها في الكتابة والتعليم هي اللغة العربية . (المادة ٨) .

... راية الدولة العربية هي راية الثورة العربية التي انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الامة العربية وتوحيدها . (المادة ٩) .

... العربي هو من كانت لغته العربية ، وعاش في الارض العربية أو تطلع إلى الحياة فيها ، وآمن بانتسابه إلى الامة العربية . (المادة ١٠) .

... يجلى عن الوطن العربي كل من دعا او انضم إلى تكتل عنصري ضد العرب وكل من هاجر إلى الوطن العربي لغاية استعمارية . (المادة ١١) .

... تتمتع المرأة العربية بحقوق المواطن كلهـا ، والحزب يناضل في سبيل رفع مستوى المرأة حتى تصبح جديرة بتمتعها

بهذه الحقوق . (المادة ١٢) .

... تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم والحياة الاقتصادية كي يظهر المواطنون في جميع مجالات النشاط الانساني كفاءتهم على وجهها الحقيقي وفي حدودهـا القصوى . (المادة ١٣) .

في السياسة الداخلية

... الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمـة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة امة واحدة . وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والاقليمية . (المادة ٢) .

... يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدول العربية منسجم مع روح العصر الحاضر وعـلى ضوء تجارب الامـة العربية في ماضيها . (المادة ٥) .

... تمنح حقوق المواطنين كاملة لكل مواطن عاش في الارض العربية وأخلص للوطن العربي وانفصل عن كل تكتل عنصري. (المادة ٧) .

الحزب العربي الاشتراكي

ـ العرب امة واحدة . وعليهم ان يؤلفوا دولة واحدة ، في وطن عربي واحد . (المادة ٢ من دستور الحزب) .

(أ) ـ مؤسسات العرب الروحية من اخلاقيـة وفكرية متجددة في أصولها العميقة ، وفي مختلف ادوار التاريخ .

(ب) ـ لغة العرب هي التي تعبر عن أصالتهم وطابعهم الذاتي

وتماسك مؤسساتهم (المادة ٣) .

ـ تتجلى الامة العربية في رسالتها الانسانية القائمة على نشر روح التضامن والاخاء بين الامم (المادة ٣) .

ـ الوطن العربي هو كل أرض سكنها العرب ونشروا فيها لغتهم وطبعوها بطابعهم فأصبحت ضرورية للدفاع عن كيانهم . (المادة ٥) .

ـ يعتبر العرب جميع المناطق التي اغتصبت من أراضيهم جزءاً من الوطن العربي . (المادة ٦) .

ـ القومية العربية ايمان عميق بعبقرية الامة العربية ومقدرتها على التجدد وعلى المساهمة في انشاء الحضارة الانسانية . (المادة ٧) .

ـ الحزب هيئة نضالية غايتها اذكاء الشعور القومي ، حتى يؤمن كل فرد برسالة الامة العربية ، ويستعد للنضال في سبيل انشاء كيان عربي سليم . (المادة ٨) .

ـ يستهدف الحزب ازالة الحواجز بين مختلف الطوائف الدينية والمذهبية والعنصرية والطبقية ، بهدم النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفاسدة ، ووضع نظم تتفق مع طبيعة العرب وحاجاتهم في العصر الحاضر (المادة ٩) .

ـ الحزب هيئة شعبية تؤمن بالقوى الكامنة في الشعب العربي وتسعى إلى ايقاظ هذه القوى وتنظيمها في سبيل الدفاع عن حق الشعب وحشدها لقلب جميع الاوضاع الفاسدة (المادة ١٠) .

ـ السلطة العليا في الحزب مجموعة افراده التي تؤلف طليعة العرب (المادة ١٥) .

ـ لا يجوز ان يتناول تعديل دستور الحزب نظام الحكم

الجمهوري ، والمبدأ الاشتراكي والسعي وراء الوحدة العربية (المادة ٥٦) ؛

الحزب الجمهوري الديمقراطي

ان الفصل الثاني من منهاج الحزب الجمهوري الديمقراطي ، يحمل عنوان « السياسة العربية الدولية » ، وينص على ما يلي :

يعتبر الحزب القطر السوري جزءاً من الوطن العربي الاكبر ، ويدعو إلى ان تبذل الجمهورية السورية وسعها لنصرة القضية العربية العامة . (المادة ٥) .

يرى الحزب في جامعة الدول العربية وسيلة تساعد على توثيق الصلات القومية والسياسية والاقتصادية والثقافية بين كافة الاقطار العربية وتمهد بذلك السبيل إلى الوحدة العربية الشاملة : التي يجب ان تكون هدف العرب الاسمى .

والحزب يدعو إلى تعزيز الجامعة العربية باصلاح ميثاقها ، وتوسيع صلاحياتها ، وتكوين جبهة واحدة منها للدفاع (المادة ٦) .

يكافح الحزب جميع المشاريع والمعاهدات والاتفاقيات التي تتنافى مع استقلال اي دولة عربية ، وتفسح المجال للتدخل الاجنبي والنفوذ الاستعماري في بلاد العرب . (المادة ٧) .

يدعو الحزب إلى اتباع سياسة خارجية قائمة على المصلحة القومية ، بالتضامن مع بقية الدول العربية . ويرى التمسك بميثاق هيئة الامم المتحدة والتعاون مع الدول التي تحترم هذا الميثاق ، على أساس المساواة والمصلحة المتقابلة ، وعدم المساس بسيادة البلاد واستقلالها . (المادة ٨) .

الاحزاب العراقية

●

حزب الاستقلال

كيان الحزب

١ ـ شعبي : يؤمن بأن السيادة للأمة ويعتمد في تحقيق أهدافه على منظمات شعبية شاملة ويسعى لتحقيق اكبر نفع ممكن للمجموع بضمان حد ادنى لمعيشة الفرد ومكافحة الفقر والمرض والجهل وغير ذلك من عوامل الانحلال الخلقي والاجتماعي .

٢ ـ تضامني : لا يؤمن بالطبقية بل يعمل على ازالة الفوارق القائمة ويعتبر الامة جماعة وافراداً جبهة واحدة لتحقيق الاهداف الوطنية .

٣ ـ كلي : يحرم التعصب الاقليمي والطائفي والديني ويعتبر الوطن بجميع اجزائه وحدة اجتماعية يكمل بعضه بعضاً .

٤ ـ ايجابي : يتعاون مع الامم الاخرى على اساس تبادل المصالح المشتركة ولا يخاصم إلا من يحول دون تحقيق اهدافه .

٥ ـ تجددي تام يساير ـ مع التمسك بالخصائص العريقة والمثل العليا ـ روح العصر ويأخذ بالوسائل الحديثة ويطبق قواعد العلم

البلاد العربية
منذ ظهور الاسلام

مراكش | الجزائر | تونس | ليبيا | مصر | سوريا | العراق | الجزيرة العربية

هجرية: ٣٠ – ٨١ – ١٣٣ – ١٨٤ – ٢٣٦ – ٢٨٨ – ٣٣٩ – ٣٩١ – ٤٤٢ – ٤٩٤ – ٥٤٥ – ٥٩٧ – ٦٤٨ – ٧٠٠ – ٧٥١ – ٨٠٣ – ٨٥٤ – ٩٠٦ – ٩٥٧ – ١٠٠٩ – ١٠٦٠ – ١١١٢ – ١١٦٤ – ١٢١٥ – ١٢٦٧ – ١٣١٨ – ١٣٧٠

ميلادية: ٦٠٠ – ٦٥٠ – ٧٠٠ – ٧٥٠ – ٨٠٠ – ٨٥٠ – ٩٠٠ – ٩٥٠ – ١٠٠٠ – ١٠٥٠ – ١١٠٠ – ١١٥٠ – ١٢٠٠ – ١٢٥٠ – ١٣٠٠ – ١٣٥٠ – ١٤٠٠ – ١٤٥٠ – ١٥٠٠ – ١٥٥٠ – ١٦٠٠ – ١٦٥٠ – ١٧٠٠ – ١٧٥٠ – ١٨٠٠ – ١٨٥٠ – ١٩٠٠ – ١٩٥٠

الراشدون
الأمويون
العباسيون
الأدارسة
الإمارة البربرية
الأغالبة
الطولونيون
الإخشيديون
بنو حمدان
الفاطميون
بنو زيري
بنو حماد
المرابطون
السلاجقة
الموحدون
الأيوبيون
بنو زيان
المغول
المماليك
بنو حفص
بنو مرين
الفرس
الأشراف
العثمانيون
مصر
فرنسا
ايطاليا
العراق

مراكش | الجزائر | تونس | ليبيا | مصر | سوريا | العراق | الجزيرة العربية

الصحيح في اصلاح حال الأمة ولا سيما في النواحي الاقتصادية والاجتماعية . (المادة ٢) .

سياسة الحزب الخارجية

سياسة الحزب في الامور الخارجية سياسة انشائيـــة ترمي إلى ما يأتي :

١ ـــ تعزيز كيان العراق الدولي باستكمال سيادته والعمل على تقوية الجامعة العربية وجعلها عاملاً في تكوين نظام اتحادي بين البلاد العربية ووسيلة للتعـــاون العالمي لخير الانسانية وصيانــة السلام العام .

٢ ـــ السعي لتبديل المعاهدة العراقية ـــ البريطانية تبديلاً يطمئن السيادة الوطنية .

٣ ـــ العناية بالبلاد العربية كافة ولا سيما الاجزاء غير المستقلة منها وتمكينها من تقرير مصيرها وتحقيق استقلالها واتحادها مع دول الجامعة العربية .

٤ ـــ ان فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ويجب ان تبقى عربية ومن أول واجبات الحزب مكافحة الصهيونية ومقاومة الوطن القومي لليهود ومقاومة انشاء دولة يهودية فيها أو في أي قسم منها .

٥ ـــ اذكاء روح الصداقة وتقوية العلائق السياسية والاقتصادية والثقافية مع الامم الأخرى ولا سيما المجاورة .

٦ ـــ توثيق الصلة بين المهاجر العربي ووطنه الاول بالاتصال بالجاليات العربية في المهاجر .

توثيق الروابط مع الشعوب الاسلامية خارج البلاد العربية واعتبارها قوة عظيمة يعمل الحزب على الاعتزاز بها والتعاون معها . (المادة ٣) .

حزب الاتحاد الدستوري

غاية الحزب — تحقيق اصلاح عام يستهدف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفق منهج عامي شامل يأخذ بالتجديد النامي مع مسايرة التطور ومحاربة الطبقية والطائفية بأنواعها والروح الاقليمية الانعزالية . (المادة ٢) .

سياسة الحزب الخارجية — يستهدف الحزب في سياسته الخارجية تحقيق ما يلي :

أ — توثيق روابط الاخاء والتفاهم بين الدول والشعوب العربية وذلك بوضع وتشجيع المشروعات التي تستهدف تعزيز وتوسيع مختلف الصلات بين هذه الدول والشعوب وتكفل تقدمها وازدهارها وسيرها متحدة لاستعادة مجد الامة العربية وانزالها المنزلة اللائقة بها بين امم العالم المتمدن .

ب — تبديل معاهدة التحالف العراقية — البريطانية بحيث يؤمن ذلك استقلال العراق ويصون سيادته الوطنية .

ج — مواصلة الجهاد لنصرة فلسطين وانقاذها ومكافحة الصهيونية لدرء أخطارها عن البلاد العربية .

د — تعزيز العلاقات السياسية والاقتصادية مع الأمم الاخرى ولا سيما المجاورة وتوثيق الصلات الاخوية والروحية القائمة بين

العراق والبلاد الاسلامية ودعم السلم العالمي بتحقيق مبادىء ميثاق هيئة الامم المتحدة . (المادة ٣) .

الحزب الوطني الديموقراطي

غاية الحزب – يعمل الحزب على تحقيق اصلاح عام في جميع نواحي حياة العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وفق تصميم علمي منسق شامل ، يستمد أسسه من المبادىء الاشتراكية الديموقراطية .

ويتوسل الحزب لتحقيق اهدافه بالوسائل الديموقراطية .

السياسة الخارجية – أ) – يعمل الحزب على تحرير العراق من كل ما ينقص من استقلاله الكامل ، وعلى إقامة العلاقات بين العراق والدول الأخرى على أساس الصداقة والمنافع المتبادلة والتساوي في الحقوق والواجبات بشكل ينسجم وميثاق الامم المتحدة .

ب) – يعمل الحزب على تحقيق اتحاد البلاد العربية بدولة اتحادية (فيدرالية) .

ج) – يعمل الحزب على تحقيق استقلال البلاد العربية المحرومة من استقلالها وتحرير فلسطين بما يضمن حقوق وكيان شعبها العربي .

حزب الامة الاشتراكي

يسعى الحزب في سياسته الخارجية إلى :

١ – توطيد كيان العراق الدولي ، وتعزيز استقلاله ، وجعل

علاقاته الخارجية قائمة على اسس الصداقة والمنافع المتبادلة :

٢ – تنظيم العلاقات بين العراق والدول العربية الاخرى على اساس اتحاد سياسي **Fédération** يشملها جميعاً ، على ان يبدأ هذا الاتحاد بالدول التي ترغب في الانتظام فيه ، ويرى الحزب ان جامعة الدول العربية يجب ان تكون وسيلة لتحقيق هذا القصد.

٣ – العمل على تحقيق الاماني العربية في قضية فلسطين .

٤ – العمل على تحقيق استقلال البلاد العربية غير المستقلة .

٥ – إقامة أحسن العلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول المجاورة .

الاحزاب اللبنانية

•

الجبهة الاشتراكية الوطنية

العلاقات العربية

السعي لتجديد الجامعة العربية وجعل سياستها أكثر إيجابية . ثم تدعيم العلاقات العربية في نطاق ميثاق الجامعة، بتعزيز التعاون الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، الغاء التأشيرات ، حرية التبادل الزراعي والصناعي ، تنسيق التشريع ، تبادل البعثات الدراسية والتدريسية ، حرية انتقال المؤلفات والمنشورات .

العلاقات مع سورية

تقوم العلاقات بين لبنان وسوريا على اساس اتفاقيات تعقد بين البلدين وتضمن أفضل طريقة للتعاون التام بينهما على اسس متينة في الحقلين الاقتصادي والسياسي .

الكتلة الوطنية اللبنانية

مبدأ الكتلة — اللبنانيون أمة واحدة — ولبنان جمهورية ديموقراطية مستقلة ذات سيادة .

في السياسة الخارجية

التعاون الوثيق مع البلدان المجاورة بما لا يمس استقلال لبنان وسيادته وشخصيته .

صيانة الاستقلال والسيادة الوطنية في لبنان .

حزب النداء القومي

مباديء الحزب واهدافه

إيضاح الفكرة العربية ونشرها في داخل البلاد اللبنانية بحيث تصبح قاعدة لسياسة الدولة .

وقد جاء بين شروط الانتماء إلى الحزب : أن يكون مواطناً حسن السلوك والسمعة ، صادقاً في وطنيته ؛ أميناً لقوميته العربية .

الفكرة العربية في ذاتها حقيقة حية أزلية. ولكن تصور العرب لها ، وتشخصهم إياها اختلف بل يختلف حسب أجيالهم وبيئاتهم وأهوائهم . واختلافهم هذا يتفاقم في اختيار الطرائق وتحديد المراحل وتعيين الاساليب التي يتخذونها للوصول إلى تنفيذ تلك الفكرة. ولقد آن للعرب ان يصطلحوا على معنى لها ، واحد واضح ، استيفاء لحظ الفكرة من الحقيقة نفسها ومن العلم ومن امتهم .

وآن ان يقرروا المراحل والاساليب التي يسيرون فيهـا إلى تحقيق هذا المعنى الواحد الواضح .

ونحن في لبنان وفي الحزب مدعوون بطبيعة الحال للمساهمة في هذه المهمة القومية المحتمة . وسنلبي النداء ، ونساهم فيها من

خلال عملنا الحزبي نظرياً وعملياً . وسنوضح ونذيع اجتهادنا ومذاهبنا في يوم موعود . غير ان الاساس في فهمنا لتلك الفكرة العربية على وجه الاجيال ، ليس هو اليوم ولن يكون في المستقبل ، إلا انها فكرة عربية قومية تمدنية تقدمية صرف بجيلة انسانية .

نحن نقرر :

أ ــ لزوم وجود كيان لبناني موحد مستقل ذي سيادة وطنية قومية في حدوده الحاضرة التي تقررت نهائياً سنة ١٩٤٣ .

ب ــ وان لبنان بلد عربي الارومة والطابع والمقصد .

ج ــ وانه ضمن الحقائق القومية النهائية المطلقة ، وضمن وطنية لبنانية صحيحة ، وضمن أساليب حكيمة للتوفيق والتنسيق المستمرين بين ذينك الأمرين المقررين الواقعين ــ يباشرها قوميون صادقون ــ لا يمكنهم ان يقوم بينهما تعارض وتناقض ولا يجوز .

ونحن أفراد الحزب في نشأته ، فاهمون لما نقول ، ونمتاز بأننا قلنا به ــ وهو قد استقر أخيراً نظاماً للدولة وشعبها ــ قبل اي جماعة اخرى .

ونحن في قولنا وفهمنا صادقون . وماضينا وحاضرنا آية .

حزب الاتحاد الجمهوري

كان في لبنان حزب يسمى « حزب الاتحاد الجمهوري » . اندمج الحزب المذكور ــ في أواخر سنة ١٩٥٠ ــ مع « حزب الكتلة الوطنية اللبنانية » .

رأينا من المفيد ان ندرج فيما يلي ، ما قاله رئيس الحزب ، — في الخطاب الذي ألقاه عند اعلان الاندماج — عن « القواعد التي يجب ان ترتكز عليها السياسة اللبنانية ازاء الدول العربية » ، قال :

« ان مبدأ التعاون العربي لم يكن موضع جدل بيننا . لانه من الأمور المقررة المفروغ منها . إلا اننا وجدنا ان هذا التعاون لم يخرج حتى الآن عن الاشكال التافهة التي انحصرت في تبادل تصريحات المجاملة والود الصوري والتعاون السطحي . ويمكن القول ان هذه المظاهر والاشكال كانت في اغلب الاحيان ستاراً يخفي روحية سامة من سوء التفاهم وسوء النية . ولذلك فاننا متفقان على اسس جديدة في السياسة العربية ، يجب ان تحل مكان الاسس العتيقة . يجب ان يحل التعاون الصادق الصحيح مكان التعاون الشكلي ، وان يسود الاخلاص وصفاء النية ، العلاقات بين الدول العربية جميعاً ، على ان يظل لبنان ، من ضمن شخصيته سباقاً إلى ذلك .

« إن الرسالة اللبنانية تفرض علينا الكفاح والجهاد في سبيل تركيز مبدأ التعاون العربي على اسس ثابتة ، كي يصبح هذا التعاون عنصراً فعالاً في التوازن الدولي والسلام العالمي » .

حزب الكتائب اللبنانية

إن الفصول التي نشرناها في هذا الكتاب ، رداً على مقالات جريده العمل — التي هي لسان حال الكتائب اللبنانية — تبين

موقف الحزب المذكور من القضايا العربية ، بتفصيل واف :
ولهذا السبب ، لم نر لزوماً إلى ذكر شيء عن ذلك في هذا المقام .

الاحزاب المشتركة بين سوريا ولبنان

الحزب السوري القومي الاجتماعي

تأسس في سوريا ولبنان — منـــذ سنة ١٩٣٤ — حزب ، عرف أولاً باسم « الحزب السوري القومي » ، ثم باسم «الحزب السوري القومي الاجتماعي . »

هذا الحزب ، حل بقرار رسمي ، في لبنان ، ولكنه لا يزال قائماً في سوريا .

إن الفصول التي نشرناها في هذا الكتاب — انتقـــاداً لآراء مؤسس الحزب وزعيمه المرحوم انطون سعادة — تبين موقف الحزب المذكور من القضايا العربية بتفاصيل وافية .

ولهذا السبب لم نر لزوماً لذكر شيء عن ذلك في هذا المقام.

✶

حزب عصبة العمل القومي

كان قدتنادى وتضامن جماعة من الشبان — في سوريا ولبنان — وألفوا حزباً عرف باسم « حزب عصبة العمل القومي » :

ونحن ندرج فيما يـــلي نص البيان الذي أصدرته « مفوضية الدعاية والنشر » باسم الحزب المذكور في بيروت :

« اخي الشاب العربي !

« تحية العروبة ، في هذا الظرف الدقيق الذي تجتازه الامة العربية في مختلف اقطارها ، وبعد فشل الأساليب المرتجلة تنادى نفر من الشباب القومي ، للعمل على ضوء هـذا الواقع المؤلم ، وعقدوا العزم على تحقيق الاهداف التالية :

١ ــ ان العرب امة واحدة ، والعروبة روحية تصنع اخوة يتساوى فيها العرب بالحقوق والواجبات .

٢ ــ الامة العربية جسم اجتماعي واحد ، كل عضو فيه يقوم بوظيفته التي هي وحدها مقياس افضليته .

٣ ــ البلدان العربية بكليتها وطن عربي واحد .

٤ ــ القومية العربية تنبذ كل ما عداها من العصبيات الطائفية والقبلية والاسرية والاقليمية .

٥ ــ الحركة العربية ، هي حركة بعث وتحرير وانشاء .

٦ ــ تعمل العصبة لاقامة نظام اقتصادي شامل ، يظفر فيه كل مواطن بحقه المتناسب مع عمله. وتحارب الجهل والفقر والفوضى .

٧ ــ تأخذ الدولة على عاتقها المشاريـع الرئيسية الكبرى ، وتعمم التعاونية القومية .

٨ ــ تؤمن العصبة بالمدنية العدل ، اي المدنية الجامعة محاسن المدنيتين المادية والروحية ، وبأن الامة العربية ستكون رسول هذه المدنية .

٩ ــ قوام النهضة الرجل والمرأة على سواء . والعصبة تعتمد في بلوغ أهدافها على التنظيم الشامـل للجنسين ، وتستند فيـه

بالدرجة الأولى إلى الشباب .

فان آنست في نفسك العزم للعمل على تحقيق هذه المبادىء الجديرة ببعث الامة العربية بعثاً صاعقاً « فهيا إلى صفوفنا لنؤلف الركب العربي الميمون » .

البلاد العربية منذ ظهور الاسلام

●

لقد رسمنا « الخارطة الزمانية » المطبوعة في الصفحة المقابلة ، لاظهار العلائق التاريخية التي كانت تربط مختلف الاقطار العربية في مختلف العصور ، منذ ظهور الاسلام .

يلاحظ على الخارطة تسعة خطوط شاقولية ، تقسمها إلى ثمانية أشرطة ، تمثل الاقطار العربية ، حسب الترتيب التالي : الجزيرة العربية ، العراق ، سوريا ، مصر ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، مراكش .

كما يلاحظ عليها سلسلة خطوط أفقية متقطعة يشير كل واحد منها إلى « نصف قرن » ، منذ سنة ٦٠٠ حتى ١٩٥٠ ميلادية ، ومنذ سنة ٣٠ حتى ١٣٧٠ هجرية .

نعتقد أن هذه الخارطة لا تحتاج إلى شرح وإيضاح .

ومع هذا ، نود أن نشير إلى الحقيقة التالية التي تظهر الى العيان منذ الوهلة الاولى ، عند النظر إلى هذه الخارطة الزمنية .

ان العالم العربي لم ينقسم — في أي عهد من عهود تاريخه الطويل — بقدر ما انقسم منذ ثلث قرن ...

فهرست

صفحة

١٤٧ رابعة – ١٢ – ٦٠

مؤلفات قومية

●

* معالم الحياة العربية الجديدة	للدكتور منيف الرزاز
* تطور معنى القومية	« « «
* ازمة اليسار العربي	للدكتور كلوفيس مقصود
* ازمة التمدن العربي	محمد وهبي
* الجذور التاريخية للقومية العربية	للدكتور عبدالعزيز الدوري
* معنى الحياد الايجابي	للدكتور كلوفيس مقصود
* القومية العربية أمام تصارع الاضداد	للدكتور محمد مجذوب
* الجيل العربي الجديد	للدكتور عبدالله عبد الدائم
* صفحات من الأمس القريب	للدكتور عبدالرحمن البزاز
* الوعي العقائدي	للدكتور حسن صعب
* العرب والحضارة	لنخبة من الاساتذة
* أي غد ؟	للدكتور قسطنطين
* نحن والتاريخ	« « «
* الثورة الجزائرية	أحمد الخطيب

الثمن ٢٠٠ ق . ل . أو ٢٥٠ ق . س .

مطابع دار العلم بيروت

